

في مذكرات الرحالة الفرنسيين

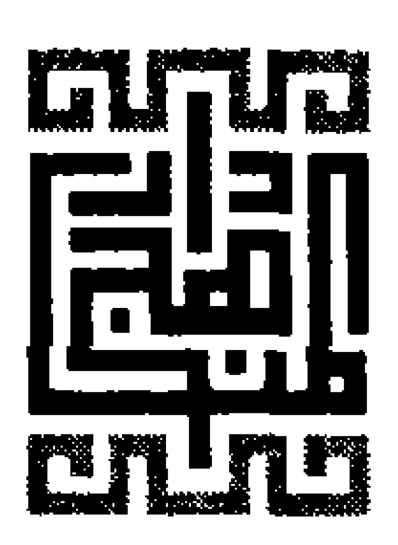
ترجمة وتعليق

الدكتور وليد كاصد الزيدي



بغداد

في مذكرات الرحالة الفرنسيين



دار المناهج للنشر والتوزيع

عمان /الأردن / شارع الملك حسين

بنايـة الشركـــة المتحدة للتأمين

هاتف 4650624 فاكس 4650664

ص.ب / 215308عمان 11122 الأردن

Dar Al-Manahej

Publishers & Distributor
Tel : (00962 6) 4650624
fax: 009626 4650664
Amman-King Hussein St.
P.O.Box: 215308 Amman 11122
Jordan
www.daralmanahej.com
info@daralmanahej.com
manahej9@hotmail.com

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية

2006 /7 /1753

956.3

الزبيدي ، وليد

بغداد في مذكرات الرحالة الفرنسيين بين القرنين (17-20) الميلاديين / وليد كامل الزبيدي

عمان دار المناهج 2006

( ) ص

ر.إ: 2006 /7 /1753

الواصفات:بغداد / تاريخ العراق / المذكرات / التراجم

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

بغداد

في مذكرات الرحالة الفرنسيين

ترجمة وتعليق

الدكتور وليد كاصد الزيدي



دار المناهج للنشر والتوزيع

إهداء

إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية
ومدينة ألف ليلة وليلة . .

إلى جميع الباحثين في التاريخ العربي
والإسلامي ..

د. وليد

يسلط هذا الكتاب الضوء على حقبة تاريخية تكشف النقاب عن وصف لمعالم مدينة بغداد في الفترة بين القرنين السابع عشر والعشرين ، وهي عبارة عن مذكرات لعدد من الرحالة الفرنسيين دونت في أربعة مؤلفات ، صدرت في تواريخ متفرقة في فرنسا قبل أكثر من قرن من الزمان باللغة الفرنسية وبقيت راقدة تحت غبار الزمن،يكتنفها التجاهل والنسيان.قمنا بترجمة ما يتعلق منها بمدينة بغداد مع التعليق على بعض ما ورد في نصوصها. قد تكشف هذه المذكرات التاريخية بعض الوقائع عن تاريخ هذه المدينة العريقة، والتي ربما لم يتطرق إليها المؤرخون ولم تتناولها كتب التاريخ التي صدرت حتى يومنا هذا.

المترجم

المحتويات

الفصل الثالث

سلسلة رحلات أيام زمان واليوم

موضوعات من كتاب "رحلة إلى بغداد"

للرحالة موريس هونوريه 1929م

مقدمة المترجم

لا يخفى على أحد أن هناك كثيرا من الأحداث والوقائع التاريخية التي مر بها العراق بعامة ومدينة بغداد بخاصة، لم يكشف عنها النقاب ولم تزل في طي المجهول حتى يومنا هذا، ولعل سبب ذلك يعود إلى ندرة التدوين التاريخي في القرون الماضية والى كثرة الغزوات والهجمات التي استهدفت تلك المدينة، فدمرت وأحرقت مكتباتها وما احتوته من كتب ثمينة ونفيسة، ولاسيما إبان الغزو المغولي لها بإمرة هولاكو عام 1258م، فضلا عما تعرض له عدد كبير من المدونات التاريخية من التحريف والتشويه للوقائع والأحداث والشخصيات.

إن تأريخ بغداد يكتسب أهمية بالغة بوصفها إحدى أهم الحواضر العربية في التأريخ القديم والحديث، ولاسيما أنها كانت عاصمة الخلافة العباسية فضلا عن شهرتها العالمية بوصفها(مدينة ألف ليلة وليلة)،في حين ما ترجم عن تاريخ هذه المدينة ومدن العراق الأخرى باللغات الأجنبية وتحديدا

الفرنسية شحيح [1]. ونظرا لأن دراسة التاريخ واستلهام دروسه وعبره يعد ركنا أساسيا تستند إليه الأمم الحية في استعادة نهضتها وأمجادها فقد عمدت إلى ترجمة موضوعات مختارة عن مدينة بغداد، وردت في مذكرات وكتب تناولت تأريخ العراق بشكلٍ عام، ولعل هذه الأسباب هي التي دفعتني لترجمة هذه الفصول من كتب ومذكرات وضعها عدد من المؤرخين والرحالة الفرنسيين.

لقد وصف هؤلاء مدينة بغداد وصفا دقيقا من حيث التطرق للأحداث والوقائع التاريخية التي مرت بها المدينة في فترات هامة من تاريخها الحديث وذلك بدءا من القرن السابع عشر وحتى مطلع القرن العشرين بعد أن مروا بها وأقاموا فيها لفترات مختلفة، فقدموا وصفا لتركيبة سكانها وأزيائهم والطبيعة الطوبوغرافية للمدينة ومناخها ومواردها المائية وطبيعتها وثرواتها وزراعتها وصناعاتها وأسواقها وغير ذلك، فضلا عن

---

(1) كتب عن تأريخ العراق كثير من الفرنسيين ، ولكن لندرة ما ترجم منه إلى العربية يعطي صورة لدى الباحثين والمؤلفين والقراء بأن الفرنسيين لم يهتموا بالكتابة عن العراق، وهذا ما أشار له الأستاذ الدكتور سيار الجميل عندما قال: ((ومن الجدير بالذكر ، أن المدرسة التأريخية الفرنسية قد غاب عنها " تأريخ العراق الحديث" بجملة تكوينا ته ، في حين اهتمت كثيراً ببلاد الشام وبلدان المغرب العربي . لمزيد من التفاصيل ، أنظر : د.سيار الجميل ،زعماء وأفندية ، الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب ، ط1 ، الأهلية للنشر عمان ، 1999 ، ص ص 184-185.(المترجم)

الصراعات التي جرت على أرضها ومن حولها وقد طالت الحرث والنسل وروعت أهلها على مر السنين التي تجعلنا نردد بأن النعم والثروات والخيرات التي حبا الله بها أرض السواد قد ابتليت من جرائها بأحداث جسام فتكالب عليها الغزاة الطامعين من كل حدب وصوب، ولم تنقطع غزواتهم وأطماعهم حتى يومنا هذا.

إن قيمة هذا الكتاب من الناحية التاريخية تكمن في أن من كتب فصوله من الفرنسيين، هم من المحايدين الذين لا مصلحة لهم ولا غاية في تشويه الحقائق أو تزييفها، ولعل ذلك يوفر لمن يريد أن يطلع على تأريخ بغداد وقائع وأحداث جديدة قد تثري المعرفة وترفد الباحث والقارئ على حد سواء.

ومن الجدير بالذكر أن من النادر أن نجد من يؤرخ لتلك المرحلة من تأريخ بغداد من العراقيين، في حين انبرى للتأليف والكتابة عن تأريخ مدن العراق ومنها مدينة بغداد، عدد من الأجانب لعل من بين أكثرهم شهرة - المستر ستيفن لونكريك - المفتش الإداري في الحكومة العراقية إبان الاحتلال البريطاني للعراق، في كتابه - أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث - الذي نقله إلى العربية جعفر الخياط عام 1941م فأصبح من أهم المراجع التي تتحدث عن تأريخ العراق الحديث.

لقد أكد لونكريك ندرة ما كتب عن تلك الفترة الزمنية الهامة من تأريخ العراق الحديث بقوله : ((لم يكتب عن تأريخ العراق منذ أوائل القرن السادس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر من قبل باللغة الإنكليزية ولا باللغات الأوربية الأخرى الذي ينبغي أن يحظى بعناية تليق بمهد حضارة الإنسان وبمركز يعد من أقدم مراكز الإمبراطوريات القديمة، وبأصقاع مر بها كبار القادة من الإغريق والرومان وبمشهد مجد الإسلام ومفاخره في زمن العباسيين))[1].

إن الآراء التي أوردها المؤرخون الفرنسيون في هذا الكتاب نقلت حرفيا إلى العربية دون المساس بجوهرها وقيمتها التاريخية، ذلك أن ترجمة المدونات التاريخية تتطلب دقة بالغة وأمانة علمية تدعو إلى عدم تجاوز حرفية الترجمة في أغلب الأحيان، وقد علقت في هوامش فصول الكتاب، على عدد من الآراء والأفكار التي وردت في

---

[1] ستيفن هيمسلي لونكريك ، أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط3 ، مطبعة البرهان ، بغداد ، 1962.

مذكرات هؤلاء المؤلفون (الرحالة)، نتيجة لعدم استيعابهم وفهمهم لتقاليد وأعراف أهل عذه المدينة العريقة.

لقد تضمن الفصل الأول من الكتاب ثلاث رحلات وقعت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أولاهما كانت • رحلة دي تيفينوت إلى المشرق عام 1664م • المنشورة في باريس عام 1665م، وثانيهما : مذكرات رحلة جان أوتير إلى تركيا وبلاد فارس مع أخبار رحلات طهماز كوي خان • فصل عن بغداد • عام 1739م المنشورة في باريس عام 1748م، وثالثهما : مذكرات رحلات الكومت فيريير – سوفبوف إلى تركيا وبلاد فارس وبلاد العرب، تاريخية،وسياسية، وجغرافية (1782-1789) المنشورة في باريس عام 1790م.

أما الفصل الثاني فقد تضمن موضوعات منتقاة من مذكرات الرحالة الفرنسي إميل أوبليه في كتابه (بغداد، سكة حديدها، أهميتها، ومستقبلها) عام 1916م المنشورة في باريس عام 1917م، الذي تضمن موضوعه الأول وصفا لمدينة بغداد من حيث:(السكان، والأزياء، والآثار، والمساجد والآثار الأخرى، والجاليات والقنصليات، والمناخ)، في حين تناول الموضوع الثاني وصفا لولاية بغداد من حيث : (الأنهار، والمناخ، وحبة حلب، والمحاصيل، والسكان، والديانات، واللغات، والتعليم، والمدارس، والأخلاق، والصناعة، والتجارة، والحيوانات، والطيور، والأسماك، والحشرات، ومناجم الفحم، ومناجم الملح). أما الموضوع الثالث فقد تطرق إلى ولاية بغداد والتجارة الفرنسية مع سوريا.

في حين تناول الفصل الثالث موضوعات من مذكرات الرحالة الفرنسي موريس هونوريه مترجمة عن كتابه (رحلة إلى بغداد) المنشور في باريس عام 1929م .والذي تضمن موضوعات حملت عناوين : (نحو مدينة الخلفاء، وبغداد، والأراضي السهلية حيث تقع بابل، وإلى قصر الملك الكبير) .

ولعل ما ورد في هذه الترجمة من معلومات تعبَر عن مشاهدات وآراء الكتَاب والرَحالة الفرنسيين فحسب، في حين علقت على عدد من الآراء والأفكار والمفاهيم والتصورات الخاطئة التي أوردها الكتَاب والرحالة الفرنسيين، وقد وجدت في ترجمة هذه المؤلفات بعض الصعوبة ولاسيما في الترجمة عن اللغة الفرنسية التي كتب بها في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

آمل أن أكون في ترجمتي لمذكرات الرحالة الفرنسيين هذه، أكون قد أضفت إلى المكتبة العراقية والعربية كتابا يتحدث عن وقائع وأحداث كانت في طي النسيان،ويضم معلومات قد لم تتطرق إليها مؤلفات وكتب تاريخية سابقة.

وفي الختام لابد لي أن أقدم شكري الى شقيقي الدكتور مفيد الزيدي أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في كلية الآداب – جامعة بغداد الذي راجع الكتاب من الناحية التاريخية، وإلى الأستاذ الدكتور عبد الجبار ناجي رئيس قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة ببغداد الذي وفر لي عددا من هذه المذكرات.

أحمد الله أولا وأخيرا الذي يسر لي إتمام هذه الترجمة التي بدأت بها منذ نهاية عام 2002 وأكملتها في منتصف عام 2004.

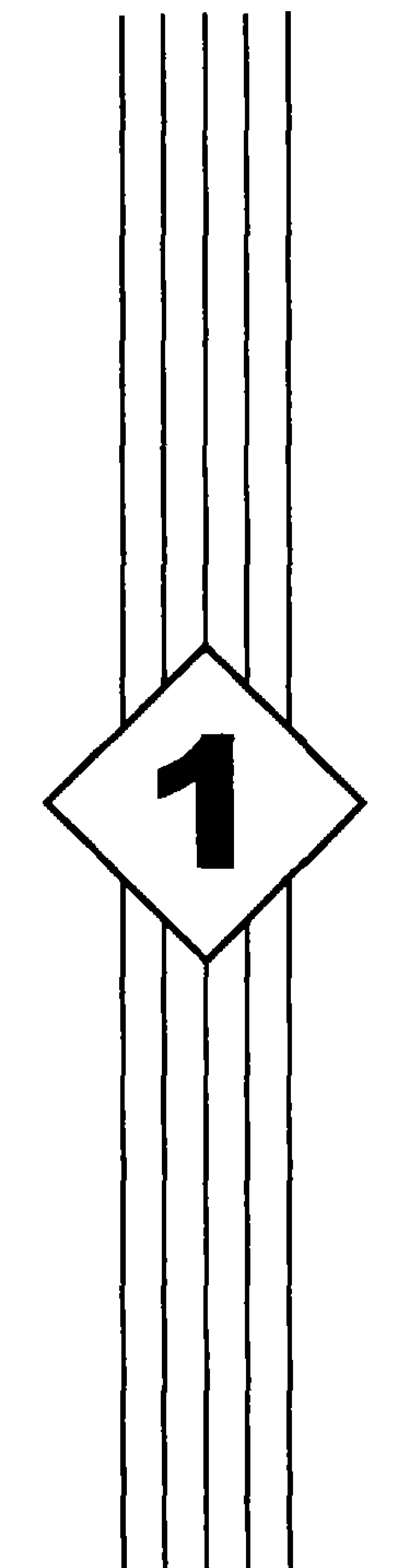
إنه ولي التوفيق

المترجم

د. وليد كاصد الزيدي



الفصل الأول



رحلات في القرنين السابع عشر والثامن عشر

الرحلة الأولى

أخبار رحلة دي تيفينوت [1] إلى المشرق

تأريخ الرحلة (1664م)

تأريخ ومكان النشر (باريس - 1665م)

Relation d'un voyage Fait au Levant
Par M. De Thevenot
Paris – 1665

أخبار ما حدث لدى احتلال بغداد من قبل السلطان مراد[1] إمبراطور الأتراك [2]، مترجمة عن رسالة مكتوبة من قبل بيزار[3] لمعالي سيادة مصطفى باي أحد بايات سناجق مصر(القاهرة) تحديداً، وبعد تقديم الثناء لله وتقاليد أخرى يتبعها الأتراك في رسائلهم جاء ما يلي:

---

1 جان تيفينوت (Jean Thevenot) زار المشرق العثماني والفارسي عام 1655 بتحريض من المستشرق هيربلو، وزار سورية في رحلته الثانية عام 1664، نشرت رحلته بعنوان (رحلة إلى المشرق) عام 1665، بعد وفاته. ذكره لونكريك في كتابه "أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث"،ضمن كتابات السواح الذين زاروا بلاد المشرق،مشيرا إلى كتابه " قصة رحلة في بلاد المشرق "، إذ أورد في الصفحة 569 وصفاً لاحتلال بغداد على لسان شاهد عيان، كما ذكر كتاب آخر له عنوانه "مجموعة رحلات"، مطبوع في أمستردام عام1727م، ذكر في جزئه الرابع وتحديداً في الصفحات (557 -592) رحلته إلى البصرة والإحساء والقطيف. (م).سوف يشار بدلاً عن كلمة المترجم في الهوامش بـ (م) اختصارا.

1 حكم السلطان مراد (1623-1640م)، ولد في 28 جمادى الأولى سنة 1021هـ الموافق 27 تموز 1612م، وهو الابن الخامس للسلطان أحمد الأول الذي أطاح بحكم مصطفى الأول في أيلول 1623م،ومات سنة 1640م،ولمزيد من التفاصيل، أنظر:

J.H.Kramers , The Encyclopaedia of Islam Art.Murad 1V , Vol 111 ,London, 1936.p.731.

2 وقعت بين أيدينا رواية احتلال بغداد من قبل السلطان مراد (Amurath) مترجمة عن التركية إلى الفرنسية، والتي نرجع إليها في عدد من الموضوعات المتعلقة بها.

3 البيزار: مدجن الباز. (م)

في اليوم الثامن من بزوغ قمر شهر رجب، الذي وافق في الأول من شهر نوفمبر من العام الميلادي ألف وستمائة وثمان وثلاثون، دفع عظمة السلطان معسكر قطاعاته أمام بغداد في نفس المكان الذي وضع فيه السلطان سليمان قواته قبل أكثر من مائة عام، وذهب في نفس اليوم لزيارة الضريح المقدس، للإمام الأعظم في حين استدعى جميع الوزراء والباشات وأركان الحرب الآخرين آمراً إياهم بوضع جنودهم في حالة استعداد للمعركة، ومن ثم أرسل البريد إلى جميع القادة المنتشرين حول معسكره المسمى(سلاح الفرسان)، في حين جهز المقاتلين في صفوف جيشه من حولها، بعدها قام بجولة تفتيشية حول المدينة على ظهور الخيل المجهزة بأجمل وأبهى الأسلحة، ثم عاد إلى المركز، الذي كان مغلقاً بشكلٍ محكم، إذ لا يستطيع أي شخص أن يدخل إليه أو يخرج دون أن يعطي سبباً إلى القادة الذين وضعوا على أجنحة الجيش حول المدينة.

وفي ذات اليوم عمل على إنشاء أكداس كبيرة من التراب في أماكن متعددة، وقد نقل إليها كمية كبيرة من الأخشاب وحزم أغصان الأشجار التي مزجت مع الأتربة فكانت هناك تلال متساوية في ثلاثة أماكن حتى غدت أكثر ارتفاعاً من أسوار بغداد، نشر على كل منها عشرون قطعة مدفع، شرعت بالرمي منذ فجر اليوم التالي، وفي ذات الوقت قام السلطان بإنشاء برج عالي أمام سرادقه إذ يصعد عظمته إلى أعلى البرج ليشاهد – كما في معرض لوحات فنية – ماذا يجري في جيشه وفي مدينة بغداد بأسرها، بعيداً عن مدافع العدو ويأتي إليه في هذا المكان كبار الشخصيات، أمثال رجال القضاء وقادة الجيش ورؤساء الشرطة، وقد جمعهم ذات مرة ليقول لهم: أنتم أيها المفتون والوزراء والبيلربية[1]: الباشا وقادة السناجق[2] وجميع من وضعهم الله تحت طاعتي، لا تفكروا أبداً بأنه قد جيء بكم إلى هنا مع هذا الحشد الكبير من الجنود الأوفياء للقانون، سوى لكي تنتصروا أو تموتوا، ومن أجل ذلك بما أنكم جميعاً تقفون

---

[1] البيلربي. رئيس البكوات ضمن نظام الخيالة. (م).

[2] السنجق:كلمة تركية بمعنى علم، وهي هنا كانت تعني منطقة يحكمها (سنجق بكي) بمقام وحدة إقطاعية، وأصبحت بعد ذلك تشير إلى الوحدة الإدارية التابعة إلى الإيالة ويحكمها متصرف.

أمامي، فإنه لا يوجد حل آخر أمامكم سوى القتال، وبعكسه فإن الحل هو بيدي النظيفة التي سأقتل بها القادة الكبار الذين لا يؤدون واجبهم، وسأفعل ذلك بالصغار الواحد تلو الآخر، أو ستقتلون بيد العدو، و بعد ذلك سأموت أنا أيضاً، لكي تذكر الروايات التاريخية للأجيال القادمة بأن خليفة الدولة العثمانية العظمى قد مات هنا مع مليون رجل من أجل الدفاع عن العقيدة.

بعد ذلك خفض من صوته، لكي يتعامل معهم بحدة أقل، قائلاً لهم: ألم تروا أن العالم هو عبارة عن شيء تافه أو بالأحرى لا شيء، لذا فان الذي يموت في موقف مشرف، يجد خيراً بعد موته، ولكن الذي يقتل عدواً من أجل العقيدة، هو أيضاً أكثر سعادة في الجنة: أنتم آبائي(هكذا خاطب كبار السن) وأنتم إخواني الذين في عمري، لأننا خلقنا من مادة واحدة، فلنفعل شيئاً يجعل نبينا العظيم (محمد صلى الله عليه وسلم) هو المدافع عنا يوم الحشر، يوم سنمثل جميعاً أمام محكمة الإله العظيم، وأردف قائلاً: أما هؤلاء الأوفياء فإنهم قاتلوا بشجاعة من أجل المجد الأكثر علواً لمبادئهم المقدسة ومقدساتكم جميعاً، وإذا ما قاتلنا وانتصرنا، فاتنا حينها نستطيع أن نشعر بامتلاكنا للطمأنينة في هذا العالم، وسنحصل على المجد تلو الآخر، ومن أجل ذلك أود إخباركم بأن من المناسب أن نقاتل دون خوف من الأخطار، ولكن لماذا تخشونها ؟ ألستم تدخلون هذه المعركة من أجل محبة نبينا العظيم الذي وعدنا خيراً كثيراً أمام صاحب الجلالة (الإله العظيم)، كلا لا أعتقد بوجود حالة خوف لدى أحد منكم، وإذا وجدت أن البعض منكم لا يمتلك قلباً شجاعاً ليدخل المعركة، فإني سأقتله بسيفي، من فهم قولي هذا من جميع الحاضرين، فليرفع يده فوق رأسه، وقد أجاب الجميع بصوت واحد بأنهم جميعاً مستعدون لتنفيذ رغبة عظمته، ومنذ ذلك الحين دخلوا المعركة دون ضياع للوقت.

لقد وضع السلطان الأعظم جميع سرادق الأطباء والجراحين في جيشه خلف سرادقه، معلناً أوامره بجلب جميع الجرحى إلى هذا المكان من أجل تضميدهم ، وهذا ما حصل لاحقاً. وقد تحدث إليهم السلطان بكلام جميل وعاملهم بشكل حسن، ثم

أعطى كل واحدٍ منهم مبلغاً فقد أعطاه في يوم واحد إلى سبعمائة جريح، ولكم أن تتصوروا لو أن المعركة كانت سهلة، فهل أعطى هذه المبالغ إلى أبناء هؤلاء الذين قتلوا، أو أعطاها إلى أكثر الناس قرابة إليهم.

وبعد تسع وثلاثون يوماً من الحصار، أحتلت المدينة في اليوم الأربعين، وكان عظمته يتذرع إلى الله بالصلاة طيلة تلك الأيام وفي جميع الليالي جاثما ً على ركبتيه معفرا ً جبينه بالأرض والدموع تتساقط من عينيه، وفي كل الأمسيات يتم التنقل بالعربات إلى مسافات قريبة من ساحة المعركة، التي بدأت بالزحف عليها اتقاء مدافع العدو ومن أجل الاقتراب من المدينة، في حين وجدنا أنفسنا في العاشر من قمر شهر شعبان أمام حفر من الأرض، حينها أمر عظمته بأن تدفن هذه الحفر بعدد كبير من الأكياس المملوءة بالتراب وبصورة مستعجلة. وهكذا فقد ردمت خلال أربعة أيام وانشأت ثلاثة تلال أخرى، نقلت إلى قممها المدافع التي كانت في المقدمة، إذ يمكن بواسطتها إصابة نصف أسوار بغداد ذلك أن النصف الآخر كان مطموراً تحت أكداس التراب من جميع جهات المدينة، حيث لا تستطيع المدافع من الوصول إليها: لقد تم رمي ألف إطلاقه مدفع صوب المدينة، ووجهت نحو بعض المباني أو القباب ذات الأجراس التي قاومت الإطلاقات، وكان الهدف منها إنذارها بأن تخلى دون أن تصاب بأذى: وفي موقع سليمان باشا الذي كان على أحد التلال، هنالك اثنا عشرة مدفعاً ترمي بشكل مستمر على المدينة، وقد أصابت عدداً كبيراً من المنازل. في حين كان موقع الوزير الكبير على تل آخر مع الرماة الذين كانوا يصوبون إطلاقاتهم نحو المدينة، متحصنين خلف ثلاثة حصون. لكن الأخير قتل من جراء إصابته بإطلاقه بندقية في الرأس وجرح ثلاثة من البيليربي هناك، وفي اليوم السابع عشر نصِّب مصطفى باشا الذي كان باشا وقائمقام البحر بدلاً عنه، وعندها سلمه السلطان الأختام.

وفي اليوم الثامن عشر حينما كان ضياء القمر ساطعاً لم تكن هنالك حاجة إلى حمل فتائل مشتعلة، وقد تم دخول المدينة في هجوم عنيف متهور، حيث طلب

المحاصرون وهم يصرخون، (الرحمة.. الرحمة)، وقد قلبت ساريات أعلامهم، وراياتهم على الأرض. وهم يعترفون بخضوعهم إلى مشيئة عظمة السلطان، ومن بينهم الكهية[1] فضلاً عن قائد الجيش والضباط الكبار بالخضوع لحاكم بغداد أيضاً، وقد ذهبوا ليجدوا الوزير الكبير مرتدياً بدلة بياقة كبيرة، وكان سيفه في غمده مما عكس نوعاً من الخضوع المخزي، وقد توسل للحصول على الأمان بصفته الشخصية بعيداً عن صفته الرسمية، وهذا يعني طلب الشفقة والرحمة. وقد حصل عليها فعلاً، مثلما حصل مع الحاكم المسمى بكتاش، لقد تركهما الوزير بعد أن ذهب ليرى السلطان الذي روى له ما حدث، ملتمساً من عظمته إنقاذ حياة هؤلاء المساكين النادمين، والذي حصل في البداية أن أمر عظمته بتجهيز كل واحد منهم ببذلة فاخرة من أجل إجراء عرض لائق بهما، وقد جيء بهم في موكب فاخر وكان بكتاش في مقصورته، إذ وصل ولم يستطع أن يقاوم بهاء المشهد وهيبته، حينها تجمد الدم في عروقه، ولم يستطع القول سوى حمداً لله.. حمداً لله.

كان عظمته جالساً على عرشه، وقد ارتمى بكتاش خان على الأرض، وهو يطلب العفو منه متوسلاً" الرحمة، وهذا ما حصل عليه فعلا"، في حين قام السلطان برفعه وتقدم قريباً منه مستفسراً عن عدة أشياء، رد عليها بشكل مقنع، ومن ثم أعطاه سترة مبطنة بفرو (سمور سيبيريا) المسمى" زبلين[2]"، وخنجر، وحزام مرصع بأحجار كريمة، ورفلة من ريش البلشون[3] مع شعار غالي الثمن، بعدها أعاده إلى المدينة، وأرسل معه القادة الكبار وبقية الضباط أيضاً، ومن ثم أسمع الناس، بأن من يريد أن يبقى في خدمته سيكون مرحباً به، أما من لا يرغب فسيتم تسريحه من الخدمة بدون سلاح، ومن يعاند ويكابر سيكون تحت شفرة السيف. وكان بكتاش خان قد

---

1 الكهية: كلمة تركية، وهي تحريف لكلمة – كتخدا– الإيرانية، وتعني بوجهٍ عام الأمين والموظف الكبير، ثم أصبحت تعني الوزير الأول في حكومة الولاية التي يحكم فيها باشا الباشوات.(م)

2 الزبلين: حيوان مفترس،، فاخر الفرو،يسمى كذلك سمور سيبيريا، وهو من صنف السموريات يكثر في سيبيريا. (م)

3 البلشون: الطائر المسمى مالك الحزين. (م)

امتد على الأرض متوسلاً الرحمة ومقدماً المزيد من عبارات الشكر لعظمته واعداً بأن يكون عبده، وعينيه تقطر دمعاً بل سيلاً من الدموع، التي هي أسلوب ناجح جداً لاستعطاف الأتراك، وبعدها أعاده إلى سرادق الوزير الكبير، في حين أرسل الكهية إلى المدينة للتعرف على رغبة السلطان، ولكن في تلك الأثناء دخل عدد من الجنود قريباً من موقع الوزير الكبير في ذات الوقت من خلال الباب المسمى (Himan Azana) وبدأوا بنهب المنازل إذ تم رؤية ستة من الخانات (khans) – وهم لدى الفرس بمثابة الباشوات لدى الأتراك – كانوا في المدينة ولم يستطيعوا التعبير عن شكواهم، وظلوا يصرخون بأنهم أخلفوا وعدهم الذي قطعوه بعد أصبحوا تحت رحمته، إذا كانوا قد عاملوهم بقسوة، في حين تجمع معظم الجنود في باب يدعى (cara cape)، وكان أتباعنا غاضبين جداً من المذبحة ومن السلب والنهب الذي ارتكبوه، لذا فإنهم لم يستمعوا إلى إنذارهم، لقد قتلوا جميع من صادفوه في تلك الليلة التي جرت فيها المذبحة، والله يعلم كم هو عدد الفرس الذين قتلوا في تلك المذبحة، وكم هو حجم الغنائم الذي أخذها أتباعنا.

في الصباح جاء الخانات آنفي الذكر مع خمسة عشر ألف رجل الذين استطاعوا إعادة تجميعهم، مصوبين أسلحتهم باتجاه السور وسيوفهم مشرعة بأيد أخرى، وبدأوا بالنزول في اندفاع شجاع، وقد نقل فوراً الخبر إلى عظمة السلطان، الذي أمر بأن يأتي جميع الجنود من المواقع الأخرى إلى الداخل، وقد وضع كل شيء على حد السيف، لكنه قرر أيضاً أن يبقي البعض تحت إرادته ويقتل الآخرين.

ومن بين أولئك كان هنالك عشرة آلاف قتيل، أما الآخرين فكان عددهم خمسة آلاف، في حين اقتيد الخانات الستة كالأسرى، وكانوا: نائب خان أسير الوزير الكبير مع الحاكم بكتاش خان، وميرزا علي بيك خان، ولالا محمد، وأوسين خان التابع لساليكتار باشا، وألين خان مع اثني عشر من المرافقين الكبار لباشا القاهرة.

إن الخمسة آلاف فارسي الذين حضروا ليكونوا تحت رحمة السلطان وضعوا تحت حراسة بيليربي واحد ومجموعة من الجنود المجردين من السلاح، وذلك لمنع جنودنا من أن يسببون لهم الأذى. لكن الوزير الأكبر شاهدهم يمرون أمام سرادقه، حينها جمع قادة الجيش الذين كانوا قريبين منه، وقد قال لهم: لماذا نقدم الشفقة إلى هؤلاء الكلاب الذين ليس لديهم أي وفاء، ولم نكن نرى وعودهم مطلقاً وهم الذين لم يعودوا بحسب رغبتهم، لكننا نحن الذين أرغمناهم على ذلك بالقوة، فالله هو الذي آزر أيدي جنودنا البواسل، ألم يكونوا هم أنفسهم الذين انتصروا علينا في ريفان (Revan)، وبالمقابل فان السلطان عاملهم برأفة وطاعة بعد أن حصلوا على الرحمة، وقد سرحهم عظمته مع أسلحتهم وأمتعتهم، في حين أنكروا هذا الفضل، فقتلوا آلاف من جنودنا الذين وجدوا أنفسهم تحت رحمتهم ؟ ماذا إذن بشأن دم الأوفياء الذين أريق بفظاعة ؟

إن الرحمة تسبغ عليهم في حالة كونهم جاءوا دون قتال، ولكنهم أسروا بعد إصرارهم على المقاومة، وهم بذلك أصبحوا غير جديرين بالرأفة والشفقة، ولكن على أية حال، فان عظمة السلطان إذا أصدر العفو عنهم، فإني سوف لا أعفو عنهم، وقد أوعز فجأة إلى نافلي أوقلي، وإدريس محمد باشا، وإلى فارفارلي باشا، وإلى شناس كاساندار، وإبراهيم باشا (باشا السويس)، بتمزيقهم إرباً إرباً، ولكنهم رفضوا ذلك بداية معتذرين بأن السلطان الأعظم قد عفا عنهم. ولكنه أعطاهم الأمر مكتوباً من أجل تسويغ موقفهم، آخذين الميثاق الذي أعطاه لهم ليذهبوا بمقتضاه لتنفيذ أوامره.

الذي حدث، هو أن السلطان أرسل إليه، وقد سأله عن سبب إعطائه مثل هذا الأمر المخالف لما أمر به، ناكلاً الوعد الذي أعطاه، وقد كانت إجابته: بأنه رغم إعطاء السلطان الرحمة لهم، إلا انه لا يريدها لهم بسبب ما ذكره من أسباب آنفة الذكر، ومع ذلك فان القول يرجع أخيراً إلى عظمته، وبعد قليل من التفكير، تأمل السلطان ما

سمعه للتو، فخلع سترته التي كان يرتديها وأعطاها للوزير الكبير، وأثنى على ما قام به من عمل.

أخيراً كان هناك في بغداد واحد وثلاثون جندياً من صفوة الجند، جميعهم مختارين مع عشرين ألف آخرون كانوا قد دخلوا بصفة متطوعين، جميعهم كانوا قد مروا تحت شفرة سيوفنا دون أن يهرب أحد منهم لينقل الأخبار إلى مدن الفرس الأخرى.

لم تكن هنالك مطلقاً معركة مماثلة لهذه المعركة ضد الفرس، منذ معركة (جالديران)[1] عام 1514م عندما دارت معركة ضد السلطان سليم والد السلطان سليمان القانوني والشاه إسماعيل الصفوي ملك الفرس حيث قتل أكثر من ثمانمائة ألف رجل من الطرفين، وفي اليوم الثامن عشر من قمر شهر شعبان الذي وافق يوم جمعة أعيدت مدينة بغداد بأكملها إلى يدي السلطان الأعظم، مع الثناء والشكر لله، ومباركة الناس من الأهالي، الذين كانوا يأملون استعادة حياة جديدة، وحينما تبين للمحاصرين أنهم لم يعد باستطاعتهم مقاومة مشيئة الله أكثر من ذلك، لذا فإنهم فضّلوا بشكل ملحوظ مسالمة سلطاننا العظيم. وقد قتلوا جميع النساء والأطفال الصغار وعرقبوا [2] من خمسة آلاف غلى ستة آلاف حصان ثمين، وذلك من أجل أن لا نستفيد منها.

أما بكتاش خان الذي كان عظمة السلطان قد أكرمه بشكل مهيب كما مرّ ذكره، فقد وجد داخل المدينة في الصباح ميتاً، وقد تبين أنه سمم نفسه في الليلة الفائتة، ودفن حينها مثل " الكلب ".

---

1 جالديران: معركة وقعت عام 1514م بالقرب من مدينة أرمينية ، انتصر فيها العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول على الإيرانيين بقيادة الشاه إسماعيل الذي جرح في هذه المعركة، فدخل العثمانيون مدينة تبريز.(م)

2 عرقب: قطع العرقوب الواقع بين الساق والوظين للحيوان. (م)

وقبل مغادرة عظمة السلطان إلى القسطنطينية، وصل رسول ملك الفرس الذي أمر سموه بإيقافه ووضعه تحت الحراسة الدائمة، ثم اقتادوه إلى عظمة السلطان، الذي خاطبه قائلاً: اذهب وقل لملكك بأن يرسل لي نسبان باشا، ميمي باشا، عيان باشا، شيبوربكيري، الذين أسروا في بلاد فارس، مع كل ما أخذوه من بغداد وريفان (Revan) سواء كان مالاً أو سلاحاً أو ذخيرة حربية، وأن يعيد لي (تفريز جنا سيفام، شيرسول)، وجميع المقاطعات الأخرى والأماكن التي كان قد أخذها من والد جدي السلطان سليمان، وأن يعطيني الجزية والعطايا مستحقة منذ ذلك التاريخ. وبعد أن يتحقق ذلك سوف نتجه نحو تسوية الحدود، وفي حالة موافقته على هذه الشروط وأخذه بها، سأكون حينها مسروراً، وستنتهي جميع الخلافات بيننا، و إلا فإني أود أن أوضح له بأنه عندما يستخدم أي شكل من أشكال الاختفاء ولو كان تحت الأرض أو يكون طيراً ليحلق في الهواء، فإنه سوف لا يفلت من بين يدي، وسأضع جميع مدنه تحت سيطرتي وأن لا أبقي منزلاً سليماً في أصفهان، وجابا وأردبيل، ولا في المدن الأخرى، قصبات أو قرى، وسوف لا يجد عشباً في جميع أراضي مملكته، وسأطارده بعد ذلك أمامي كالصياد حينما يطارد فريسته، وليلاحظ جيداً أن الندم لا يعطي أية نتيجة بعد أن يقع في الغلط، وإذا ما أراد أن يستعد لهذه المواجهة، فإنني مع مساندة الله لي سأكون في عقر داره، حينها سيطلب ألف مرة الرحمة مني، وسوف لن ينالها، وقد قام عظمته بكتابة رسالة في ذات الشروط، وضعها بين يدي الرسول، ثم أذن له بالانصراف، بعدها أعاد بناء ضريح الإمام الأعظم من جديد وزينه بالعديد من المصابيح الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة. وغطى الفناء بسجاد من الحرير، وزين الأضرحة المقدسة الأخرى كذلك: وقد أرسلت مشيئة السلطان وبانتظار رد ملك الفرس، وبعد أن عاد إلى القسطنطينية، حينها توقفت كافة الأعمال.

كتب في بغداد في الثاني والعشرين من شهر شعبان 1048 للهجرة الموافق للتاسع عشر من شهر ديسمبر 1638 للميلاد.

الرحلة الثانـــــية

مذكرات رحلة جان أوتير إلى تركيا وبلاد فارس مع أخبار رحلات طهماز كوي خان (فصل عن بغداد)

تأليف أوتير من الأكاديمية الملكية للبحث والفنون الجميلة

تأريخ الرحلة (1739م)

تأريخ ومكان النشر(باريس - 1748م)

Voyage En Turquie Et En Perse Avec une Relation des Expéditions de Thomas Kowi – Khan

Par.J. Otter[1] de L'Académie

Royal des Inscriptions & Belles Lettres

Paris – 1748

1 جان أوتير (Jean Otter): عضو البعثة الأثرية التي كان يقودها المركيز دوفيللينوت ومن خلفه في المكتبة الملكية، وقد أوفد إلى المشرق عام 1734 وبقي عشر سنوات تنقل فيها ودرس اللغات والسياسة وتأريخ الشرق وتنمية تجارة فرنسا مع الشرق. وكوفئ على حماسته براتب ووظيفة مترجم في المكتبة الملكية للغات الشرقية وأستاذ كرسي اللغة العربية عام 1764.(م)

بغــــداد[1]:

لم يّعد لدي عمل في بغداد فقد أبحرت في الثامن من حزيران على متن مركب مؤجر من قبل تجار أتراك ونزلت في ذلك اليوم في كاراكابي (kara – kapi) أحد أبواب بغداد، إذ أن جميع الذين توجب سفرهم عادوا إلى هناك في اليوم التالي وحينما كنا نسلك الطريق جاء أحد رجال الأغا[2] من الإنكشاريين ليوقفنا بعد ساعتين من الإبحار، وقد اصطحب معه ستة من المتمردين الإنكشاريين الذين أودعوا في عهدة قائد المركب كمحتجزين مع أمر باقتيادهم إلى مدينة البصرة، حيث قرر الباشا نفيهم.

ويعد أحمد باشا الوحيد الذي توصل إلى سر تهديد الإنكشارية الذين يخافهم ليس فقط الباشوات الآخرين ولكن غالباً السلاطين أنفسهم. ولكي ينجح في فرض احترام هذه المليشيات له وتوجيهها والسيطرة عليها، فقد قام بكل ما توجب على السلاطين القيام به (ربما كانوا قد جربوه ولكن دون جدوى). وقد شكّل أفواجاً من قطعات أخرى لغرض تحقيق موازنة سلطة الإنكشاريين مع تلك الأفواج، ومنذ ذلك التأريخ قام بنفي قسم كبير منهم وضيّق الخناق على الآخرين في أحيان أخرى دون أن يخشى جانبهم.

أكملنا طريقنا، وبعد أن عبرنا ملتقى نهري ديالى ودجلة، توقفنا والوقت يشرف على المساء، إلى مسافة قريبة من منطقة سلمان باك، أحد الأماكن المقدسة لدى المسلمين.وتبعد مدينة المدائن[3] قليلاً عن تلك المنطقة، إذ تقع على الضفة الشرقية لدجلة حيث يرى المرء أطلال قصر الملوك القدامى للفرس الملقبون بـ (الكسرويين)،والمقصود به((عرش الإمبراطور)).

---

1 الفصل الرابع من الكتاب.

2 الأغا.كلمة تركية، تعني سيد أو موظف من الدرجة الوسطى (أحياناً العالية)، وقد يكون عسكرياً أو ملكياً أو مستخدماً في بيت عظيم الشأن.

3 المدائن تقع بحسب الأطلس على 17 درجة على خط الطول و33 درجة و10 ملم على خط العرض.

إحدى هذه الأطلال عبارة عن صالة كبيرة مقببة، طولها 64 خطوة وعرضها 36 خطوة، في حين يبلغ ارتفاعها سبعون ذراعاً في الطابق الأرضي للقبة، ويزعم أن ارتفاع القبة كان 150 ذراعاً، في حين أن هذا الصرح الكبير قد تصدع الجزء الأكبر منه في لحظة ولادة النبي (ﷺ) عندما سقطت منه أربعة عشر شرفة.

والمدائن هي أكبر مدن العراق الرئيسة، حيث الأخريات هن: القادسية، ورومية (Roumié)، والحيرة، وبابل، والحلة، والنهروان.

وقد وضع تيمور الأسس الأولى للمدائن، في حين أنجزها وأكملها جمشيد. إذ أقام هذا الملك الأخير جسراً من حجر على نهر دجلة في هذا المكان، لكن الجسر تهدم مثلما هو حال المدينة، التي هي اليوم ليست سوى قرية، وهذه المدينة كانت تدعى ((طيسفون)) مقر ملوك البارثيين، وقد سماها أبو الفداء أيضاً طيسفون وإسبانين. وأضاف بأنه يوجد في هذه المنطقة على الضفة الغربية لنهر دجلة، مدينة أخرى تسمى سابات وإلى جانب هذه الأخيرة توجد أخرى تسمى نهرشير، وتوجب أن تكون إحدى هاتين المدينتين اسمها " سيلوسية دجلة القديمة "، وإلى جوار المدائن توجد مدينة رومية (Roumié) التي بناها أنوشروان وذلك بعد غزو أنطاكية واسكن أسرى هذه المدينة فيها، كما يقال.

يقول عدد من الكتاب العرب بأن رومية تشبه إلى حد كبير أنطاكية، فعندما دخلها الأسرى شعروا كما لو أنهم في بلدهم " الأم "، إذ يعرف كل واحد منهم الحي الذي يسكنه والشارع، وقد ذهب ليعيش في مسكنه.

في اليوم العاشر لم نسلك الطريق بسبب عاصفة شديدة جداً حملتنا بشكل مستمر نحو السواحل، وعلى الرغم من أن نهر دجلة يتلوى في مسيره مثل نهر السين على الأقل، إلا أن تياره المباشر يأخذنا إلى القرنة. ولا يستطيع المرء أن يستخدم الشراع إلا في أوقات متقطعة وبقية الوقت استلزم الأمر سحب المركب من قبل الرجال، وبعد أن هدأت الريح في المساء مشينا بعضاً من الليل وتابعنا طريقنا في اليوم

التالي، وقد بدأنا بمشاهدة الخضرة والأخشاب المقطوعة على ضفتي النهر حيث قيل لي بوجود خنازير برية وأسود فيها.

إن مياه نهر دجلة تنقص بشكل ملحوظ في الصيف بسبب توقف الأمطار وذوبان الثلوج في هذا الفصل، كذلك لأنهم يقومون بسحب كثير للمياه في المناطق المنخفضة من أجل ارواء الأراضي. وفي تلك الفترات تكون الملاحة في النهر صعبة جداً إذ يمكن للمرء أن يصل في الغالب إلى أسفل القعر، ولكون أسفل المركب مسطح فإن المرء لا يواجه صعوبة بهذا الخصوص.

لقد حدث لنا في ذلك اليوم ولعدة مرات أن لامسنا الأرض وجنحنا نحوها بفعل الريح الشديدة وتيار الماء، دون أن نصاب بأذىً من جراء ذلك فيما عدا التأخير، لذا فقد قضينا الليل دون مواصلة المسير، في حين سلكنا طريقنا ثانية في اليوم الثاني عشر مع هبوب ريح شديدة أجبرتنا على التوقف في جزء من النهار مرة أخرى.

ويوجد في المركب نوع من طيور الزاجل التي ترسل من البصرة إلى بغداد لحمل الأخبار وبالعكس، وقد سألت أحد تجار هذه المدينة الأخيرة عن كيفية تمكن هذه الطيور من سلوك هذا الطريق دون أن تضل، وقد أجابني بأنه لغرض تعويدها على ذلك نقوم بإطلاقها في البدء من مكان أقل بعداً عن هدفها، ثم بعد ذلك نحملها إلى مكان أكثر بعداً، وهكذا تدريجياً حتى تصل إلى البصرة، وقد أضاف بأنه لدى إطلاقها من اليدين ترتفع إلى ارتفاع عالٍ جداً، بعدها تهبط قليلاً لتأخذ بالطيران بشكل مستقيم باتجاه المكان المرسلة إليه متبعة بشكل مستمر نهر دجلة الذي يرشدها في الطيران.

واصلنا تقدمنا في اليوم التالي فوصلنا نحو المساء إلى العمارة وهي عبارة عن مكان صغير يسكنه العرب، يضم نحو عشرون منزلاً على الضفة الشرقية لنهر دجلة، الذي ينقسم في الجزء الأسفل من هذه المدينة إلى فرعين، يتجه أحدها إلى اليمين

وليرتبط بالفرات بعد أن يشكل رأس بلدة جزاير، وهي التي سماها الإغريق "ما بين النهرين"، في حين يسلك الفرع الآخر جهة اليسار، لينحدر مع نفس النهر بعد القرنة وليشكل جزيرة كبيرة تسمى من قبل العرب "الجزائر"، وتكثر في هذه الأماكن الحبوب والمراعي والمواشي، ومن الملاحظ أن قبائل عربية تدعى "بني لام" تعيش في هذه الجزيرة، وهم يجبرون المارة على دفع إتاوة، ولكن منذ أن تولى أحمد باشا ولاية بغداد ضيّق نوعاً ما على ممارساتهم هذه، بعد أن استخدم معها قوة السلاح وهو في بعض الأحيان يغنم جزءاً من ممتلكاتهم، بل وفرض ضريبة سنوية عليهم.

كانت واسط[1] قديماً مدينة مشهورة في هذه المنطقة تقع على ذات الجهة التي تقع فيها بغداد بالنسبة إلى دجلة، إذ تفصل هذه الأخيرة عن البصرة، بناها الحجاج بن يوسف الثقفي في عام 84 من الهجرة على مسافة مساوية في بعدها عن بغداد وعن البصرة وعن الكوفة، وهذا يعني أنها تبعد حوالي خمسون فرسخاً عن هذه المدن. وقد سميت واسط لكونها تعني المكان الوسط لتوسطها بين تلك المدن. قال أبو الفداء بأن واسط بنيت على ضفتي دجلة وبأن هنالك جسر من قوارب كان يربط جهتي المدينة. في حين تعّد قرية "شيلمجان" إحدى ضواحيها التي ولد فيها عدداً من الأشخاص المشهورين الذين أخذوا لقب "الشيلمجاني".

أما مدينة "جرجيرايا"[2] فهي مدينة جميلة وكبيرة تقع إلى الغرب من نهر دجلة كثيرة القرب منه، مكانها بين بغداد وواسط على بعد أربعة فراسخ من ديراكول وتسعة فراسخ عن جبيل (Dgebel) التي هي مدينة أخرى تقع على ذات الضفة بين بغداد وواسط وقد أنجبت رجالاً بارزين، يعرفون تحت إسم (جبيلي).

---

1 كانون وريسم واطلس يضعون واسط على 71 درجة و30 ملم على خط الطول، وعلى 32 درجة و20 ملم على خط العرض، في حين إبني سعد (Ibni – Said) مكان يقع على 72 درجة و30 ملم على خط الطول، وعلى 32 درجة و20 ملم على خط العرض.

2 الأطلس وكانون تضع جيرجيرايا على 70 درجة و30 ملم على خط الطول، وعلى 32 درجة على خط العرض.

أما " النعمانية "[1] فهي تقع أيضاً في ذات المنطقة، يقول أبو الفداء بأنها مدينة صغيرة تقع بين بغداد وواسط على الزاب الأعلى، وهو يتحدث بدون شك عن الزاب الذي هو قناة متفرعة عن الفرات.

أما " فوم الصلح "[2] (Fum-ul-Silh) تقع على ذات الجهة التي تقع فيها واسط بالنسبة إلى نهر دجلة على بعد إثنا عشر فرسخاً عن " جبيل "، في حين يقول أبو الفداء عن " العزيزية " بأنها مدينة كبيرة تقع على بعد خمسة فراسخ من نهر سليس.

وبعد أن غادرنا العمارة في اليوم الرابع عشر اكتشفنا إلى اليسار جبال حمرين المحاذية للحدود الفارسية، وقد اعتقدت بأنها جزء من جبال حمراء اللون ضمن سلسلة جبلية جدباء، قليلة الارتفاع أراضيها محمرة، تبدأ من جهة جزيرة العرب أو من جهة شبه الجزيرة العربية، وتحديداً من منطقة " جماسية "، ثم تمر بعد ذلك بمحاذاة صحراء " جزيرة عمورية " (DgeZirai Umerie') التي يقطعها نهر دجلة بعد منطقة " عاشق ومعشوق " قبالة أسكي بغداد لتمتد بعد ذلك باتجاه بادية بغداد حتى " جزيل ربات " (Kizil – Rubat) التي يقطعها نهر ديإلى، وبعد أن تخرج من بادية واسط يقطعها نهر ديزفول (Des Poul) بين هذه المدينة " زيكية "(Zekie') فهي بذلك تعبر من صحراء إلى صحراء، لتنتهي بالخليج العربي.[3]

ويجد المرء في بعض مناطق هذه الجبال من جهة الموصل وشهرزور ومدن أسود خان مادة شبيهة بشمعات القدح يسميها سكان هذه المناطق المومياء المعدنية.

وكان قد جاء ثلاثة من الدراويش الهنود لزيارة قبور الأئمة فنزلوا هنا في بغداد حيث قدم لهم تجار أتراك الطعام الذي كانوا قد هيئوه لأنفسهم في حين اغتاظ الهنود كثيراً في ذلك اليوم ورفضوا تناول الطعام وذلك بسبب عدم احتواءه على اللحوم،

---

[1] يضع الأطلس " النعمانية " على 70 درجة و20 ملم عن خط الطول، وعلى 33 درجة على خط العرض.

[2] يضع الأطلس " فوم الصلح " على 70 درجة و45 ملم على خط الطول، و32 درجة و40 ملم على خط العرض، وهي تبعاً لمرجع " كانون " تقع على 72 درجة على خط الطول و32 درجة و50 ملم على خط العرض.

[3] ورد في النص الأصلي: الخليج الفارسي " Le Goulf Persan ". (م).

وبحجة أنهم لم يلقوا عناية واهتمام واحترام يتناسب مع هيبتهم، في حين أن الأتراك الذين تحملوا الإنفاق على الوليمة في سبيل الإحسان والصدقة استنكروا رد فعل الدراويش الذين يستجدون الطعام وهم في ذات الوقت لم يعبروا عن القناعة والرضا لما حصلوا عليه.

تابعنا طريقنا في اليوم التالي (السادس عشر)، فعبرنا "أم الجميل" (Um-ul-Dgemel) التي لا يوجد فيها سوى عدد قليل من الأكواخ، في حين زرت في اليوم التالي قبر عزرا (Esdras)، الذي يسميه العرب إفرا إبن هارون (Afra-Ibn-Haroun)، وحتى المسلمين يزورون هذا القبر. أما اليهود فقد بنوا مصلى جميل من الآجر المحاط بجدار وهم يقومون بزيارته في كل عام، ويقع الضريح في وسط المصلى الذي يبلغ ارتفاعه ستة أقدام تقريباً، وهو مغلق بقفل حديدي تتوسطه قبضة من رمانة نحاسية، وفي الأعلى توجد نقوش عبرانية بأحرف ذهبية.

في اليوم التالي وصلنا إلى مدينة القرنة (Corna) التي هي مدينة كبيرة جداً تقع على ملتقى نهري دجلة والفرات قبالة منطقة " الرحمانية" (Rahmani'e)، يوجد في القرنة كمرك وأراضي قديمة يحرسها عدد من الجنود الإنكشاريين، وتخضع هذه المدينة إلى ولاية أحمد باشا المسمى بـ (الأغا).

أما مدينة "الجيرفير" (Dgerfir)، فهي تقع قبالة شرق دجلة وتتبع للأتراك، لكن الفرس يملكون فيها قلعة تتوسطها حامية تضم مائتي رجل، يتم تغييرهم في كل عام مع كثير من تدابير الحيطة والحذر.

أما "جصان" (Dgessan)، فهي منطقة أخرى تقع على ذات الجهة حيث حدود بلاد فارس، بين "الجيرفير" و "ديرتنك"، وتوجد فيها قلعة تقع بين تلك التي في "بدرة" وتلك التي في "مغول خاني"، أو نهر أسيتاب (Asitab)، وأعني به نهر الشمس الذي يأتي من "كيوه – جيلان" خلف جبال الحيرة (Hire') فهو يمر بين قلعة جصان (Dgessan) وبين قلعة بدرة (Bedrai).

ويلتقي نهري دجلة والفرات بعد القرنة، ليشكلان نهراً عريضاً وعميقاً درجت تسميته "شط العرب" وهو يعني بالعربية "نهر العرب"، تصب مياهه في البحر مباشرة. وقد توقفنا خلال عدة ساعات في كمرك القرنة من أجل زيارة المتاجر، بعد ذلك واصلنا مسيرنا. وقد بدا لي في منتصف طريق هذه المدينة إلى البصرة مسجد صغير إلى جانبه منارة، يقول العرب عن هذا المسجد أنه بني في ليلة واحدة من قبل الملائكة، وبفضل الرياح وتيار المياه وصلنا مساءً أمام البصرة وصعدنا القناة في اليوم التاسع عشر.

الرحلة الثالـــثة

رحلات الكومت فيريير – سوفبوف[1]
إلى تركيا وبلاد فارس وبلاد العرب
مذكرات تاريخية،وسياسية، وجغرافية

تأريخ الرحلة (من عام 1782 إلى1789م)

مكان وتأريخ النشر (باريس - مكتبة بويســو1790م)

Mémoires Historiques , Politiques

Et Géographiques Des Voyages Du Comte

De Ferriéres – Sauveboeuf

Paris - 1790

هناك عدد كبير من الفرس جاءوا واستقروا مع عوائلهم في بغداد، فضلاً عن الأرمن الهاربين إليها الذين حملوا معهم ثرواتهم وصناعتهم أيضاً، هذه المدينة التي يغمر نهر دجلة جدرانها تمتلك جسراً من القوارب[2] يربط بين جهتيها، ويعود توسعها أساساً إلى المهاجرين الفرس، وإلى العرب المتعبين من العيش تحت الخيام، وإلى موقعها المتميز جداً في التجارة، وهي تقع في وسط صحراء شاسعة.

1 فيريير – سوفبوف (Ferriers – Sau vebouf): أرسل في مهمة استخباراتية إلى فارس عام 1782. طبع مذكراته التاريخية والسياسية والجغرافية من عام 1782 – 1873 عن رحلته إلى تركيا وفارس والجزيرة العربية. (م)

2 جسر القوارب: عبارة عن جسر مصنوع من قوارب مترابطة ومغطاة بألواح ضخمة.

تستورد بغداد موارد معاشها من الأقاليم العليا ويجري إيصالها بواسطة الملاحة في نهر دجلة، والمدينة مبنية من أحجار من الآجر الجميل المنظر، أما أسواقها فهي واسعة بما فيه الكفاية ومغطاة بقباب جميلة، إلا أن الحر شديد جداً في هذه المدينة الذي يجبر السكان إلى اللجوء إلى سراديب داخل منازلهم خلال ما يناهز ثلث العام وذلك من أجل أن يجدوا فيها قليلاً من البرودة، في حين يستخدم سكان المدينة سطوح المنازل للنوم ليلاً دون أن يسبب لهم ذلك أي إزعاج كان.

وتعتمد تجارة بغداد الرئيسة على الأقمشة والمنسوجات الهندية التي تصلها عن طريق البصرة، والخمار الكشميري، والأدوية والأعشاب من بلاد فارس التي تصل عن طريق أصفهان. أما تمورها فإنها شهيرة جداً إذ تعد مورداً كبيراً لعرب الصحراء الذين يعتمدون عليها كغذاء رئيسي لهم.

والنخلة لا تنتج سوى زهور فيها بذور شبيهة بالغبار، التي يتوجب بشكل ضروري أن تحمل عن طريق الريح أو يد المزارع في كأس زهور شجر النخيل، من أجل التلقيح، و إلا فإنها ستبقى عقيمة. ونرى منذ عدة سنوات مثالاً مدهشاً لضرورة تقريب بذور النخلة من أجل تلقيح زهور شجرة النخيل.

ويملك ملك بروسيا واحدة منها في مدينة برلين التي تثمر بشكل مستمر منذ وقت طويل، وليتصور المرء كيف يأتي بواسطة البريد بزهور نخلة عن طريق مدينة (لوفان)[1] بعد أن يجري المحافظة عليها بشكل دقيق في الطريق لكي تلقح بها تلك النخلة التي في برلين، ولتنتج ثماراً في ذات العام. ويحصل العرب على أكبر فائدة من تلك الشجرة، التي تغذيهم بثمارها الذي يصنعون منه أيضاً ماء الحياة (العرق) الذي يتميز بمذاقه اللاذع وتأثيره الشديد، في حين تستخدم نواته بعد أن تدق وتهرس في إطعام الجمال، وتستخدم جذوع النخيل كأعمدة خشبية في البناء، ويستخدم لحاء

---

1 لوفان: مدينة في بلجيكا تعود شهرتها إلى جامعتها التي انشئت عام 1425. والغيت عام 1830 ثم اعيد تأسيسها عام 1835 كجامعة كاثوليكية. La Rousse , Petit Dictionnaire,Paris 1989. (م)

النخل بشكل دائم في صنع بعض المنسوجات، أما سعف النخيل فتستخدم أخشابه في صناعة السرائر والكراسي، وأوراقه الطويلة تضفر لتصنع منها الحصران والسلال.

لقد نشب قتال بين العثمانيين والفرس لعدة مرات في مدينة بغداد والباب الذي خرج منه السلطان مراد[1] من بغداد بعد أن طرد منها الفرس، لم يزل مسوّراً،إذ يعّده سكان المدينة معلماً يدعو للفخر وأثراً تذكارياً لانتصارات هذا الأمير المحارب.

لقد أخذ (الباشا) لقب (الخليفة) بالنظر لإقامة الخلفاء الذين هم ممثلوا (الرسول محمد ﷺ) في بغداد قبل أن يحصل السلاطين على حقوق من جراء هذا اللقب، وهنا نجد أن خليفة بغداد يماثل بما فيه الكفاية المطران الذي يأخذ من روما لقب بطريرك إنطاكية أو الإسكندرية، دون أن يمتلك حق إصدار الأوامر.

ويرى المرء في أطراف المدينة مسكن قديم متداعٍ وعالٍ للغاية، وبالنظر لقدمه يسميه العرب "برج نمرود"، وبمحاذاة نهر الفرات يجد المرء في بلاد مابين النهرين مادة الإسمنت التي كانت تستخدم منذ القدم في بناء الجدران.

ومن جهة أخرى، نشاهد جسر بابل قد امتد مستنداً إلى قوالب ضخمة يصل ارتفاعها من خمسة إلى ستة أقدام وهو أسود مثل مادة القير وله ذات رائحتها، وتتم تنقيته من الحصى في عدة قرى، وذلك بجعله يغلي في مراجل كبيرة، ليستخدم في جلفطة2 القوارب التي تنزل إلى النهر، وينقله العرب إلى البصرة من أجل استخدامه في السفن.

أما الكوفة فإنها تقع على نهر الفرات، وهي شهيرة بوجود قبر الإمام علي (رض) المقدس جداً، لاسيما من قبل الفرس، إذ يزورونه باستمرار مع عوائلهم وهم يحملون إليه الكثير من العطايا من أجل إثراء المسجد ورغبة منهم في المساهمة بصيانة أثاثه.3

---

[1] يقصد به السلطان مراد الرابع (1623-1640م).(م)

[2] الجلفطة: هي عملية تقير أو سد فتحات القوارب أو السفن بالزفت أو دهن هيكلها الخارجي بهذه المادة أو بمادة عازلة.

[3] لايقع ضريح الامام علي (رض) في مدينة الكوفة،كما يذكر الرحالة الفرنسي، بل يقع كما هو معروف في مدينة النجف الأشرف القريبة من الكوفة.(م)

الفصل الثاني

" فصول من كتاب" بغداد،

سكة حديدها، أهميتها، ومستقبلها "

2

إميل أوبليه

تأريخ الرحلة (1916)

النشر:باريس (1917)

Bagdad, Son Chemin de Fer, Son Importance,
Et Son avenir
ÉMILE AUBLÉ
Paris – 1917

أولا: مدينة بغداد[1]

لم تعّد بغداد اليوم مدينة ألف ليلة وليلة أو مدينة الخلفاء المتألقة ذات المظهر البهي الخلاب، إذ لم يبق منها حالياً سوى صورة شاحبة مقارنة بما كانت عليه بالأمس، فقد مرّ الأتراك بها، وأقاموا فيها واستقروا لفترة طويلة، في حين أن أصدقاؤنا الروس والإنكليز هم في طريقهم اليوم لإزاحتهم عنها.

وبغداد بعد سميرن [2]، ودمشق، المدينة الأكثر سكاناً في تركيا الآسيوية.أما بالنسبة لإحداثياتها الجغرافية فهي تقع على خط طول 44.20 درجة وخط عرض 33.22 درجة عن خط غرينتش، في حين تقع القاهرة على خط طول 30.5 درجة، وخط عرض 31.32 درجة عن الخط ذاته، وهذا يعني أن بغداد تقع على خط يزيد 3.17 درجة إلى الشمال مقارنة بالقاهرة. وفيما يتعلق بمناخها فبغداد أشد حرارة من العاصمة المصرية، ولكنها ليست رطبة أبداً، في حين تبلغ مساحتها 8 كم (آنذاك)، وهي مربعة الشكل.

إن هذه المدينة العجيبة، هي من المدن الأكثر ثراءاً في الإمبراطورية العثمانية، وأجواءها لطيفة في أغلب مناطقها بفضل نهر دجلة الذي يقسمها تبعا لعرضها، إلى قسمين غير متساويين وذلك بنسبة خمس مساحتها على الضفة اليمنى وأربعة أخماس الأخرى على الضفة اليسرى وتسمى الضفة اليمنى بالعربية "الكرخ" والضفة اليسرى "الرصافة".

إن الوصول إلى بغداد عن طريق النهر، سواء من جهة الجنوب أو من جهة الشمال هو في غاية المتعة، فالنهر العريض يقطعه جسر بدائي جداً طوله خمسون متراً شيّد على طوافات تمخر عبره الزوارق والقفف الكبيرة التي يتم عبور النهر بواسطتها،

---

1 الفصل الثاني من الكتاب.

2 سميرن: أزمير (م).

وتحاذي على امتداده منشآت غالبا ما تكون جميلة جداً، أو جدران ساندة، أو بساتين نخيل، وحمضيات وأشجار أخرى من مختلف الأصناف.

إن كل بناء على ضفاف هذا النهر له سلالم للوصول إليه أو إلى رصيفه العائم الصغير، في حين توجد طرق عدة يسلكها المارة بسهولة من أجل الوصول إلى ضفاف هذا النهر العظيم المليء بزوارق كثيرة تعمل فيه.

إن بغداد لم تعد اليوم قطعاً العاصمة الأكثر شهرة، والتي يؤكد المؤرخون على أن عدد سكانها كان يبلغ 1.500.000 نسمة، في حين لا يبلغ اليوم سوى 198.000 ألف نسمة.إن المنطقة الواسعة من الأراضي المزروعة تقريباً، تنتشر بين المدينة الحالية والسور المشيد في القرن الثالث عشر، الذي هدم مدحت باشا[1] جزء كبير منه قبل خمسون عاماً، وذلك من أجل الحصول على مواد ضرورية للأعمال العمرانية الكبيرة التي شرع بها آنذاك، من خلال عمل منافذ متوازية على امتداد ضفاف النهر متصلة بالأسواق.

وفيما يتعلق بالقصور الفخمة والمساجد الفنية المشيدة قديماً، فلم يتبق منها حالياً سوى عدد قليل تقريباً، إذ دمرت تماماً إبان غزو الفرس للمدينة عام 1623م.

إن أصل تأسيس مدينة بغداد يتسم بالغموض فتبعاً للمؤرخ العربي المشهور ابن بطوطة، فإن الخليفة أبو العباس السفاح مؤسس السلالة الحاكمة للخلافة العباسية، كان قد بنى في العام 131 هـ (749 م) مدينة قريبة من الكوفة أسماها "الهاشمية". وقد خلفه أخوه أبو جعفر المنصور، الذي أ جبر من قبل جماعة دينية تعرف بإسم "الراوندية" على ترك مدينة الهاشمية والانتقال لإنشاء مقراً في موقع جديد.

1 مدحت باشا: الوالي العثماني الذي عيّن حاكماً لبغداد في الثلاثين من نيسان عام1869 م(1286هـ)،قام بإصلاحات كبيرة في هذه الولاية بعد أن جيء به من أوربا من أجل إصلاحها تجديدها، ترك منصبه بعد ثلاث سنوات إلى ولاية أخرى بأمرٍ من قبل الباب العالي أي وذلك في أوائل عام1872 م.(لونكريك، المصدر السابق،ص ص 302-304}.

وبعد إن استطلع المكان طيلة عدة أيام، وقعت أنظاره على الموقع الذي تشغله هذه المدينة (حالياً). وتبعاً لعدد من كتاب الحوليات، فان رئيس أحد أديرة الرهبان الواقع في منطقة الخلد (Khold) إلى الشمال من بغداد، هو الذي أرشد أبو جعفر إلى الموقع الحالي لمدينة بغداد، فقام برسم الخرائط ووضع الأسس في العام 146 هـ الموافق (764 م)، في حين وضع عمارتها خالد إبن برناك والحجاج.

وقد قام عدد من المؤلفين بإعداد دراسات ظلت مع ذلك عقيمة، من أجل التوصل إلى معرفة الأصل الدقيق لاسم بغداد، فقد ادعى البعض بوجود مدينة قديمة على الموقع الحالي لمدينة بغداد بناها أنوشروان، وقد أعطاها اسم الإله الذي كان ُيعبد في زمانه، وهو (باغ – داد) أي هبة باغ، فكلمة (باغ) كانت تعني اسم الإله، و (داد) هو اسم المفعول للفعل (دادن) الذي يعني بالفارسية (وهب) أ (عطاء).

فيما اتفق مؤرخون آخرون على أن اسمها قد جاء عن طريق التجار الذين كانوا يعودون إليها مرة كل عام، وقد دأبوا على تسمية الأرباح المتحققة من تجارتهم (باغ – داد)، التي تعني أيضاً (هبة مدينة باغ).

وهناك العديد من الروايات العربية التي تتحدث عن إنشاء مدينة بغداد، نستشهد بواحدة من أكثرها قدماً والتي تشير إلى أن الفلكي أو بالأحرى المنجّم الذي اختار توقيت وضع الحجر الأساس لبناء المدينة، قد حدد يوماً معيناً ارتبط فيه الطالع بأن لا يدفن أي خليفة في هذه المدينة.

وفي واقع الأمر، فإن هؤلاء الذين يعتقدون بهذه الرواية يلفتون الأنظار إلى حقيقة عدم وجود قبر لأي خليفة في مدينة بغداد (حالياً)، وهو كلام دقيق تماماً، وقد اكتمل بناء مدينة بغداد بعد أن استغرق فترة تقارب عشرون عاماً.

لقد عرفت المدينة أيام رخاء مثلما عرفت فترات بؤس طويلة، إذ دخلت في حروب مستمرة مع الفرس الذين كانوا يتنازعون عليها بالتعاقب مع الأتراك الذين كانوا يستولون عليها ثم ُتسترجع منهم مرةً أخرى،حتى استولى عليها الأتراك نهائياً

في عام 1048 هـ(1639 م)، ومنذ ذلك الوقت وحتى أيامنا هذه،أي خلال 277 عاماً تعاقب على حكم بغداد(180) حاكماً، الذين خلال فترة حكمهم لم تستطع حكومة السلطان أن تباشر سيطرتها الجدية والفعلية، وذلك بسبب المسافة الشاسعة التي تفصل هذه المدينة عن العاصمة العثمانية، في حين قضى جميع هؤلاء الباشوات أياماً ممتعة في بغداد. حكموا هذا الإقليم في أغلب الأحيان كإمارة مستقلة بذاتها وهم يمارسون فيها سلطة شبه رمزية ليس إلا.

اتجهت بغداد نحو التقدم والازدهار تحت حكم مدحت باشا الذي عمل فيها بلا كلل كمصلح من الطراز الأول، وقد حلم بأن يعيد إلى بغداد عظمتها السابقة، ورخائها الذي كانت تتمتع به في زمن الخلفاء، إذ أنفق من أجل ذلك حوالي(138 مليون فرنك فرنسي) خلال سنوات حكمه الثلاث، إلا أنه لسوء حظ هذا الإقليم وعاصمته، كما هو حال بقية أقاليم الإمبراطورية العثمانية، فإن الحكام المصلحين لا يحظون بالتقدير المناسب لهم، وهكذا توجب على مدحت باشا مغادرة بغداد تاركاً جزءاً كبيراً من أعماله التي كان قد شرع بها معلقةً. و ظلت أعماله غير منجزة، إذ لسوء الحظ لم ُتتابع من قبل الحكام الذين خلفوه في إدارة الولاية.

وهكذا فقد أصبح الجزء الأكبر من المبالغ المصروفة عبارة عن خسارة محضة في حين تم تحت إدارة هذا الحاكم المستنير إنشاء خط سكة حديد بطول 120 كم تربط بغداد بالكاظمية (المدينة المقدسة)، التي نشاهد فيها من مسافة بعيدة لمعان قبتين كبيرتين، ومنارات أربع مغطاة بصفائح ذهبية، يقدر ثمنها بـ (120 مليون فرنك فرنسي)، حيث لا يستطيع أي مسيحي أن يقترب أكثر من 200 م عن مسجد الكاظمية الكبير، الذي يتميز بغناه وثراءه، وفي النهار أو خلال الليالي المقمرة، تبدو القبتان والمنارات المتلألئة لمن ينظر إليها من بعيد كبؤرة إشعاع منيرة.

أما في جانب الكرخ، حيث كانت توجد قصور الخلفاء والآثار الأكثر أهمية، هي اليوم في حالة يرثى لها، إذ يوجد على هذه الضفة اليمنى ما يقارب 30.000 من أهل المدينة الفقراء، أغلبهم مزارعون وجمالون ونساجون وحمالون.

ومن بين الآثار القديمة، لم يبق إلا قبر الأميرة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد، وقبر النبي يوشع، وضريح الشيخ معروف الكرخي، وابن مقلة ومسجد الشيخ صندل.

ومن بين المباني الحديثة نشاهد مستشفى الأجانب، ومصاهر الحديد المسماة "دميرخانة"، التي أنشأها مدحت باشا في حين تعاني من التلف حالياً. هذا ويربط جانبي المدينة جسران، احدهما قديم جداً، يقع وسط المدينة، والآخر في أعلى النهر، قريب من باب "الموازان" الذي كان يدعى قديماً "باب خراسان"، وهذان الجسران اللذان يتميزان ببنائهما البدائي والتقليدي، يعتمدان على أخشاب من الصندل المدهونة بالزفت، وهي مثبتة على طوافات مقيدة بسلاسل حديدية شديدة الصلابة والقوة، مع ذلك فهي تقاوم بصعوبة جريان النهر مما يستلزم إجراء تصليحات مستمرة عليها.

هذا وتتمتع هذه الجسور بأحقية المرور إذ تؤجر سنوياً عن طريق المزايدة، وقد بلغت العوائد المالية لجسر المدينة (46000 فرنك فرنسي سنوياً)، أما الجسر الآخر في أعالي بغداد، الذي فيه حركة السابلة فهو أقل من سابقه، ولم تتجاوز عوائده أكثر من مبلغ يتراوح بين (25000 ألف و30000 ألف فرنك فرنسي سنوياً).

1- السكان

يمكن تقدير عدد سكان مدينة بغداد بـ (198000) ألف نسمة،منهم (37000)الف يسكنون الضفة اليمنى من النهر، و(161000)ألف نسمة يسكنون الضفة اليسرى، وهم مقسمون كالآتي[1]:

---

1 الأرقام الواردة في الإحصائية، ربما تدلل على عدم دقتها، لاسيما ما يتعلق بعدد اليهود المرتفع قياسا بعدد المسلمين الذين هم على مر القرون نفوق نسبتهم بقية أبناء الديانات الأخرى بفارق شاسع. وقد أدرجتُ الأرقام التي وردت في اصل المذكرات كما هي مراعاة للأمانة العلمية.

مسلمون (سنة)	55000	
مسلمون (شيعة)	63000	
مسيحيون	15000	
يهود	65000	(الأكثر عدداً)
المجموع الكلي	198000	

وبغياب أي إحصاء رسمي، فانه من الصعب إعطاء أرقام دقيقة، وما أشرنا إليه من أرقام، استندنا إليها لدى رجوعنا إلى أفضل التقديرات لأشخاص مختصون في المدينة بهذا الشأن.

2- الأزياء

إن سكان بغداد يرتدون بصفة عامة الزي العربي، إذ يلبس الرجال نوع من الملابس يسمى "زبون" وفوقه رداء يسمى "عباءة"، في حين توضع على الرأس قبعة مع أو بدون عمامة أو منديل مثبت بحبل من وبر الجمل، يطلق عليه "عقال"، وتلبس النساء في بيوتهن أرواب بسيطة جداً، وهذا الرداء غالباً ما يكون مفتوح من وسطه حتى الصدر الذي يغطي بنوع من الصداري المنسوجة من قماش الشاش وهن لا يخرجن إلى الشارع أبداً دون أن يلبسن رداءاً يسمى "إزار"؛ ويضعن كذلك على وجوههن نقاباً يدعى "بوشي"، وهي منسوجة من شعر الحصان، أو من نسيج ناعم، ويستخدمن كذلك نوعاً آخر يسمى "يازما" أو "منديل" من أجل تغطية الوجه، واللواتي لا يلبسن إزاراً يرتدين ردائين ويغطين وجوههن بنقاب خفيف أيضاً.

وأسوة بالنساء الأخريات في الإمبراطورية، فان نساء بغداد يستخدمن الكحل (كرانيت) لغرض صبغ أطراف الجفون والحواجب، ويستخدمن كذلك (الحناء) لصبغ الشعر وأصابع اليد والأقدام. أما مصوغاتهن فهي بشكل عام تنقصها الدقة في العمل على الرغم من أثمانها المرتفعة، وهي تشتمل على الخواتم، والأساور، وأقراط الآذان و"الخزامة"، وهي عبارة عن حلقة للأنف، ولا تلبس هذه الأخيرة إلا من قبل بعض

المسلمات اللواتي ثقبت أنوفهن، وهذا ينطبق أيضاً على أقراط الأذان. كما يلبسن حول أسفل الساق حلقة كبيرة من الذهب أو الفضة الخالصة تدعى "خلخال". ومنذ سنوات قليلة بدأت النساء المسيحيات يرتدين أزياءً أوروبية. وهناك عدد كبير من الرجال اتجهوا هم أيضاً نحو ارتداء تلك الأزياء،وتستخدم النساء ذوات الدخل المحدود في مجتمع مدينة بغداد عطراً نفاذاً مستخرجاً من نبات يسمى (كوديرا)، ويضعن الزهور على رؤوسهن، وهي عادة جميلة ومشتركة بين أغلب نساء بغداد اللواتي يستخدمنها بكثرة في موسم الورود المتميز الوحيد بروعته في هذه المدينة.

3- الآثار

إن الآثار على الضفة اليسرى لنهر دجلة هي الأكثر عدداً من تلك التي على الضفة الأخرى من النهر نذكر منها هنا وبشكل خاص،القلعة التي يمكن للمرء أن يشاهد في بغداد جوانب من جدران قديمة كانت تشكل قديماً سور المدينة، حيث كانت توجد القلعة والسجن، ويمكن أن نشاهد هنا أيضا آثار وبقايا السجن القديم حيث كان يترك المجرمين العتاة ليموتوا جوعاً، كما يوجد في القلعة مجموعة من المدافع القديمة من بينها عدد كبير من البرونز، ونرى أيضاً متحفاً للأسلحة القديمة وسيوفاً رائعة الجمال.

إن جميع هذه الآثار توضع هنا دون تنظيم وبصورة مبعثرة، وهذا سمة الإدارة العثمانية في العمل، ومن بين المدافع الأكثر ضخامة، مدفعاً يسمى "أبو خزامة" نشاهده معروضاً على نوع من منصات البناء المحاطة بأقفال قريبة من باب القلعة، وهي مسوّرة بسلاسل كبيرة، في حين يرتفع أمامها هرم صغير من المقذوفات، وهذا المدفع الكبير يرى رجال المدينة أنه قد ساهم بدور فعال في إنقاذ المدينة من الاعتداءات الخارجية، وهو في ذات الوقت موضع احترام من قبل النساء المسلمات اللواتي يحملن يقيناً من نوع خاص تجاهه، إذ من قبيل الفأل الحسن، يقدمن له الأطفال المولودين حديثاً، أما النساء العاقرات فيذهبن إليه لالتماس الشفاء من هذا

العجز، ويتم التجوال بالأطفال حديثي الولادة حول هذا المدفع، ويباركونهم أمام فوهته لكي يكونوا مصانين من الأمراض، في حين توقد النساء في أغلب الأحيان شموعاً حوله، وتعلق أخريات على السلاسل المحيطة به قطعاً من الأشرطة كنوع من النذور ويأتين لرفعه بعد عدة أيام لاحقة بعد أن يوقدنّ شموعاً هناك.

4- المساجد والآثار الأخرى

إن جامع مرجان، وقبله الخان (فندق كبير) الذي يحمل نفس الاسم، فكان كليهما قد أنشئ من قبل مرجان، عبد ابن أونيس، وهو إبن حسن جيكهاني الذي نودي به خليفةً في عام 766م، وهذين الأثرين هما أقدم المساجد في مدينة بغداد، في حين يأتي بعدهما " خان الأورتينا"، والباب الذي يقال له " باب التالوس "[1]، الذي خرج منه السلطان مراد بعد أن أنقذ بغداد من الفرس، كذلك مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي أسسه السلطان سليمان[2]، ومسجد سوق الغزل الذي يشكل مع منارته أكثر الآثار التاريخية إثارة للاهتمام، فضلاً عن مسجد سيد سلطان علي، ومسجد الشيخ عمر، ومسجد كنجة عثمان.

إن هذه المساجد العشرة تقريباً تضم أنواعاً من السجاد الفارسي الذي لا يمكن مقارنة نظيره (والمعروض في واجهات بعض متاجر مدينة ليون) به من حيث جودته وروعة منظره.

وقد حدثنا في بغداد، خبير نرويجي مهتم بالسجاد. إن هذه المساجد العشرة تضم سجاداً في غاية الجمال تزيد قيمته على مليوني فرنك فرنسي، وفي حالة بيعه للهواة وعشاق السجاد فسيصل ثمنه إلى خمسة ملايين فرنك فرنسي.

ويوجد في بغداد كلها مائة وواحد مسجد، صغير وكبير، ففي منطقة الكاظمية نجد ضريح الإمام موسى الكاظم (رض)وأضرحة أبنائه، ويعّد المسجد الذي يرقدون

---

1 لعله يقصد به باب الطلسم.(م)

2 السلطان سليمان القانوني (1520-1566م).

فيه مكاناً للزيارة يأمه جميع المسلمين(لاسيما الشيعة). ويتميز هذا المسجد الرائع بثرائه المدهش، اذ تتجاوز عوائده السنوية كهبات مقدمة إليه مبلغ(40.000 جنيه تركي) أي ما يعادل (920.000 ألف فرنك فرنسي).

أما منطقة الأعظمية المقابلة للكاظمية فهي تضم مسجداً رائعاً من وجهة النظر المعمارية، حيث يرقد فيه الإمام أبي حنيفة (رض)، المسمى بالإمام الأعظم، الذي كان فقيهاً كبيراً له شهرة واسعة في عهد الخليفة هارون الرشيد.

وفي الأيام العشرة الأولى من شهر محرم تزخر بغداد بنشاط غير اعتيادي ومنظر بديع بسبب كثرة الناس الزائرين وتنوع العادات والتقاليد التي نشاهدها هنا، ويتجاوز عدد سكان المدينة في هذه الأيام الـ(400.000 نسمة)، في حين أن سكانها الأصليين لا يتجاوزون الـ(198.000 الف)، وخاصةً في موسم الزوار (الشيعة) القادمين لزيارة الأماكن المقدسة في الكاظمية، وسلمان باك، وسامراء، وكربلاء، والنجف، حيث يتدفق الزوار الفرس وقسماً كبيراً من المسلمين والهنود والعرب شبه البدو، وهم ينتشرون على جانبي دجلة والفرات.

أما كربلاء التي لا يتجاوز عدد سكانها الـ (20.000 ألف نسمة)، فهم يزدادون في هذه الأيام إلى حوالي(60.000 ألف)، في حين أن سكان النجف الذين يبلغون(60.000 ألف نسمة) فيزدادون إلى حدود (70.000 ألف).

أما بالنسبة لمدينة الكاظمية، وبسبب مجاورتها لبغداد نشاهد فيها ولعدة أسابيع خلال أيام الزيارة نشاطاً لـ(25.000 ألف) أو إلى (30.000 ألف زائر).

ويوجد في مدينة النجف التي تعّد عاصمة الثقافة (الشيعية)، "المسجد الأم"، الذي يضم رفات الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) الخليفة الراشدي الرابع. وحيث لا يوجد مسجد آخر في هذه المدينة، لذا فهو يتميز بجماله وروعته العظيمتين، وترتفع قبة هذا المسجد ومناراته الأربع التي تشاهد من مكان بعيد وهي مغطاة كلياً بورق الذهب الخالص.

أما في كربلاء، فيوجد المسجد المسمى "الحضرة الكبيرة"، وتعد القبة والمنارات الست لهذا الصرح من أكثر الأماكن (الشيعية) المقدسة وقاراً، إذ تضم رفات وضريح الإمام الحسين (رضي الله عنه) الذي قتل في معركة كربلاء في عام 61 هـ (681 م)، وقبة هذا المسجد كمثيلته في النجف مغطاة كلياً بالذهب، وتقدر المبالغ المصروفة على هذا المكان المذهب بحدود (2.500.000 مليون فرنك فرنسي) وبشكل عام تعّد مساجد هذه الأماكن المقدسة ذات غنى كبير، إذ تدر مبالغ سنوية لا يمكن تقديرها أو السيطرة عليها، فكل زائر غنياً كان أم فقيراً، يقوم بدفع مبلغاً زهيداً في فتحة يختفي بعدها هذا المبلغ في قبو حيث يوجد ضريح الإمام.

وفيما يتعلق بتطوير وتزيين المساجد الرائعة التي تكلمنا عنها تواً، يجب علينا أن نتحدث عن كنوز مساجد كربلاء والنجف التي لا تقّدر بثمن، إذ تحتوي هذه الكنوز جواهر وأحجار نفيسة نادرة جداً وأشياء أخرى ذات قيمة كبيرة من الذهب والفضة ُقدمت كهدايا على شرف الأئمة من قبل الأغنياء، وقد أوكلت حراستها إلى المجتهدين وهم الرؤساء الروحيون(للشيعة)، الذين هم في الحقيقة يعيشون جميعاً على تبرعات معتبرة يبعثها لهم الشيعي من كل مكان، حيث أن هذا المصدر لا ينضب أبداً، إذ أن واجب كل(شيعي) أن يدفع سنوياً ما يسمى بـ"العشر" أو "الزكاة" إلى الأعمال الخيرية، وهكذا فان هذه العشور وجميع الوصايا تعود بين أيدي المجتهدين اللذين يتصرفون بها حسب توجيهاتهم، وهؤلاء الرؤساء الدينيون البالغ عددهم أربع يسمون من قبل متصرف بغداد ويعّدون من بين الشخصيات الأكثر مكانةً في البلد.

وفي الفترة التي زار فيها ناصر الدين شاه القوجاري [1] مساجد كربلاء والنجف ُفتحت كنوز المساجد بمقتضى ترخيص من السلطان العثماني عبد العزيز، حيث سحبت منها كمية كبيرة من الحلي الذهبية والفضية التي حوّلت إلى نقود.

---

1 زار ناصر الدين شاه العتبات المقدسة في العراق عام 1871م (1288هـ)، وذلك من أجل حل مشاكل الحدود بين البلدين والتي كانت معروفة حتى ذلك الحين بكثرة ما عقد بشأنها من مؤتمرات ومعاهدات منذ عام 1823م.(لونكريك،المصدر السابق،ص 309).

وقد تطلب الأمر رفع قائمة بالمواد الأساسية ذات القيمة العالية التي نقل العدد الأكبر إلى استانبول، وقد وردت الإشارة في هذه القائمة إلى مصباح مصنوع من الزمرد الخالص، وشمعدانات من الذهب المتلئ الذي لا جوف له، وهي محلاة بالياقوت الأحمر، فضلاً عن سجادة كبيرة مؤطرة بلؤلؤ ناعم وسيوف وأسلحة مختلفة الأنواع، وهي مغطاة بالحلي الثمينة والماس.

وهناك هبات من الأباطرة الأتراك والفرس والهنود، أضاف إليها ناصر الدين شاه نفسه قامة (نوع من السكين الكبيرة) مرصعة بالأحجار الكريمة يقدر ثمنها بـ(20.000 ألف جنيه تركي)، أي ما يعادل(640.000 فرنك فرنسي).

وإن من الصعب تكوين فكرة ولو تقريبية عن قيمة هذه الكنوز جميعاً، وبحسب قول بعض الأشخاص من ذوي الخبرة العريقة في هذا المجال، فإنها تقدر وبدون مبالغة بنحو(30.000.000 مليون جنيه تركي)،أي ما يعادل (690.000.000 مليون فرنك فرنسي).

وفي مدينة بغداد، يقيم نقيب الأشراف حيث مقر إقامته وهو ينحدر من نسب الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي من أجله ينظر المسلمون الهنود إلى مكانه المقدس بإجلال كبير، حيث تقدم له الهبات العديدة، وهي غالباً ما تكون ثمينة جداً، وهو الرجل الأكثر حظوة في بغداد إذ تصل عوائده المالية سنوياً إلى حوالي(4.600.000 مليون فرنك فرنسي).

5- الجاليات والقنصليات

إن الجاليات الأجنبية المتواجدة في بغداد معظمها قليلة العدد إلا أنها أخذت بالازدياد منذ عدة سنوات، ولعل أكبرها عدداً الجالية الفارسية وتأتي بعدها الإنكليزية، في حين ازدادت الجالية الألمانية بشكلٍ ملحوظ منذ عدة سنوات بسبب إنشاء سكة حديد بغداد، أما الجالية الفرنسية فيقدر عددها خمسون شخصاً بضمنهم الآباء والأخوات العاملون في مؤسساتنا الدينية.

ويمثل بريطانيا، وبلاد فارس وروسيا في بغداد قنصليات عامة، أما فرنسا وإيطاليا و بلجيكا وهولندا والدانمارك والولايات المتحدة وأسبانيا وألمانيا، فإنها ممثلة بواسطة وكالات قنصلية.

ولعل أقدم قنصلية أجنبية في بغداد هي القنصلية الفرنسية التي أنشئت في عام 1742 م، حيث عيّن في هذا التأريخ المبشر الكرملي الأب عمانوئيل مؤسس البعثة الكرملية في بغداد، الذي رسم أسقفا لبابل أيضاً، وقد حظي بمقابلة الملك لويس الرابع عشر(1638-1715) الذي عهد إليه منصب قنصل فرنسا في بغداد، ثم تلاه في هذا المنصب أساقفة آخرون. وفي فترة لاحقة أنشأت فرنسا لها في بغداد قنصلية عامة وقد خفضت منذ عدة سنوات إلى قنصلية متواضعة.

هذا وبحسب عدد من وجهاء بغداد الذين لم يؤثر تقدم سنهم على ذاكرتهم، فقد حدثونا في عدة مناسبات عن الوضع الاعتباري المتميز للقنصل الفرنسي الذي كان يتفوق على زملائه من القناصل الأجانب بنفوذه الكبير بين السلطات الحكومية والأهالي على حد سواء. أما في الوقت الحالي، وقد تغيرت الحالة تماماً، نجد أن نفوذ قنصل فرنسا لا يصل إلى نفوذ ممثلي بريطانيا وروسيا وألمانيا.

إن القنصلية العامة لبريطانيا أنشئت في وقت قريب جداً، إذ لم تؤسس حكومة صاحب الجلالة البريطانية قنصلية في البصرة وقنصلية عامة في بغداد إلا حوالي عام 1803 م، وهناك تفاصيل غريبة تستحق الإشارة ؛ إذ أن القنصل العام لبريطانيا في بغداد حمل في ذات الوقت عنوان "مقيم" وأصبح تابعاً لحكومة الهند في إدارته. فضلاً عن ذلك فقد تمتع هذا القنصل في بغداد ببعض الامتيازات الهامة التي لم تكن معروفة قط في الأقاليم الأخرى للإمبراطورية، كما أن هذا القنصل استخدم لخدمته عشرات من الحراس وحجاب مسلحين ؛ بينما كان عدد الحراس في القنصليات العامة لا يزيد مطلقاً عن أربع، ومن الجدير بالذكر أن الشيء الأكثر أهميةً هو أن القنصلية العامة التي تحدثنا عنها قد امتلكت قوة مسلحة تتألف من ستون جندياً بإمرة ضابط يقيمون

في ثكنة بالقرب من القصر، ولوقت قريب كان هؤلاء الجنود من الجيش الهندي. ولكن بسبب بعض الحوادث التي حصلت فقد تم استبدالهم بجنود بريطانيون، وأصبحوا تحت قيادة القنصل العام، فضلا عن ذلك فقد أحضرت القنصلية البريطانية بارجة حربية صغيرة، رست أمام مقر القنصل العام ووضعت تحت أمرته أيضاً. وقد صنفت هذه السفينة الحربية الصغيرة وصممت خصيصاً للتمكن من الملاحة في نهر دجلة.

هذا ويبدو أن الغرض من استدعاء هذه السفينة والجنود المسلحين الذي تحدثنا عنهم هو لتعزيز هيبة ونفوذ القنصلية العامة لبريطانيا وإعطائها أهمية استثنائية تميزها عن غيرها من القنصليات في المدينة.

هذا وقد سببت هذه القوات بتواجدها على الأراضي العثمانية في عام 1889، نزاعات بين الباب العالي وبريطانيا، وقد رفع مصطفى عاصم باشا[1] الحاكم العام لبغداد احتجاجاً بهذا الشأن حال وصوله إلى الأقاليم، طعن فيه بهذه الحالة الشاذة وقد أنكر على الحكومة البريطانية حق إبقاء قوات عسكرية على الأراضي العثمانية، ورفعت هذه المسألة إلى الباب العالي من قبل حاكم بغداد الذي بدوره وجّه الحاكم إلى ضرورة تدارك الأزمة والإبقاء على الحالة القائمة "حتى وصول الأوامر الجديدة" وهي صيغة إدارية كان الموظفون الإداريون العثمانيون قد ألفوها وهم يدركون المعنى المراد بها جيداً، في حين تجنبت الحكومة العودة إلى تلك المسألة مرة أخرى.

وبسبب قلق حكومة الهند من استخدام الهبات المقدمة من قبل الرعايا الهنود في المناطق المقدسة في العراق بشكل سيئ، فقد عينت لها معتمدين قنصليين في مدن الكاظمية وكربلاء والديوانية والنجف، وهؤلاء المعتمدون هم من أمراء الهنود الذين يحق لهم وبشكل خاص، مهمة مراقبة توزيع العطايا والهبات التي يرسلها المواطنون

1 مصطفى عاصم باشا، أحد الولاة العثمانيين الذين خلّفوا مدحت باشا في حكم ولاية بغداد، وكان ذلك عام 1887م. (لونكريك، المصدر السابق،ص305).

الهنود المسلمون على مدار السنة لكي توزع على الفقراء بواسطة المرجعيات الروحية (للشيعة) في الأماكن المقدسة.

أما القنصلية الألمانية، فقد أنشأت منذ ست أو سبع سنوات، إذ أن هذه الأمة التي لها مصالح كبيرة أنشأت قنصلية من اجل دراسة الأحوال التجارية والاقتصادية للبلد، ولغرض إدخال منتجاتها الصناعية لهذا البلد ولكي تهيئ الأرضية المناسبة للتوسع الألماني في المستقبل مثلما حدث ذلك في الأناضول.

6-المناخ

تقع بغداد مابين (35 و 38 م)فوق مستوى سطح البحر، أما مناخها فإن بإمكاننا تقسيم السنة في هذه المدينة إلى فصلين، الأول يشتمل على الفترة التي تبدأ من تشرين الثاني / نوفمبر حيث تسقط خلاله الأمطار. ومعدل درجة الحرارة القصوى هي 32 درجة، والمتوسطة أقل من 24 درجة، في حين أن رطوبة الجو في الثامنة صباحاً تتراوح بين (59 إلى 81 درجة)، ويمكن تسمية هذا الفصل بالشتاء أو الفصل البارد.

أما الأشهر الستة الأخرى، من مايس / أيار إلى تشرين الأول / أكتوبر فمعدل درجة حرارتها القصوى هي تقريباً 32 درجة وكمعدل يومي تتجاوز 24 درجة مع قليلاً من الرطوبة، وفي الساعة الثامنة صباحاً يتراوح معدلها بين 25 درجة في شهر مايس / أيار إلى 39 درجة في شهري حزيران / يونيو وتموز / يوليو، وهذه الأشهر الستة الأخيرة هي شحيحة المطر تماماً.

إن الأسطر السابقة تلخص بإيجاز موقف التغييرات المناخية للمدينة، مثلما هو الاختلاف في مصادر المعلومات التي استطعنا الحصول عليها، والمستندة على ملاحظاتنا الشخصية.

وفيما يخص الضغط الجوي فيصل إلى أقصاه في شهر كانون الأول / ديسمبر من السنة إذ يرتفع إلى(768 مليمتر)، في حين يبدأ بالتناقص بشكلٍ ملحوظ ابتداءً من كانون الثاني/ يناير وشباط / فبراير، ثم يتسارع في التناقص حتى شهر تموز / يوليو حيث لا يتجاوز حينذاك (753 مليمتر)، ويرتفع مرة أخرى ببطء في آب/ أغسطس ثم بسرعة حتى شهر كانون الأول / ديسمبر.

وفي فصل البرد أو الشتاء تصبح بغداد صورة لبلاد النهرين الشرقية، إذ هي قريبة من محور منحنى الإعصار المعاكس أو مناطق الضغط المرتفع الممتد من آسيا الوسطى إلى البحر المتوسط، وهي محاذية للمنطقة التي يرتفع فيها إلى حوالي (762 مليمتر) في منطقة البحر المتوسط الغربية، وإلى (673 مليمتر) في المنطقة الوسطى بالقرب من بحيرة بايكال[1].

ومن جهة أخرى، وخلال أيام الحر القائض، فإن قوس الضغط القاري المنخفض لجنوب آسيا يشمل مدينة بغداد أيضاً والذي يشكل واحد من المؤثرات الأكثر أهمية في هذه المناطق خلال الرياح الموسمية الجنوبية – الغربية.

وتمتد هذه المنطقة المركزية من الساحل الشمالي – الشرقي لبلاد العرب (عمان) حتى جنوب شرق البنجاب ؛ وهو ينتهي بالخط متساوي الضغط الذي يصل إلى(748 مليمتر) في حزيران و (747 مليمتر) في تموز، (749 مليمتر) في آب، وخلال هذه الأشهر الثلاث لا يتغير ضغط المنطقة الوسطى تقريباً.

وهكذا فان الممال المغناطيسي[2] ينزل إذن على مدار العام إلى وادي دجلة والفرات ولا تختلف قوة شدته كمعدل إلا بنسب ضئيلة من شهر لآخر.

هذا وتقترب درجة حرارة مدينة بغداد كثيراً من مثيلتها في جاكوباباد وبيشاور في شمال الهند، في حين تهبط في فصل الشتاء درجة الحرارة اليومية إلى 23.2 درجة في

---

1 بايكال: بحيرة في سيبيريا الجنوبية.(م).

2 الممال المغناطيسي: هو فرق الضغط الجوي الحاصل بين نقطة معينة ومحور الإعصار. (م)

شهر شباط / فبراير وإلى 15.4 درجة في شهر كانون الثاني / يناير، وفي شهر نيسان / ابريل ترتفع إلى 28.7 درجة.والأرقام المثبتة لدينا في جاكوباباد 23.1 درجة وفي بيشاور 17.5 درجة.

وكما رأينا فإن الجو أكثر برودة في بغداد في قلب الشتاء مقارنة بمقاطعات شمال الهند التي تقع على ذات خط العرض.

وتعزى هذه الظاهرة دون شك إلى التراكم الكبير للثلوج الساقطة في شمال شرق كردستان وأرمينيا، في حين تسجل درجة الحرارة كأدنى مستوى لها في ليل شهر كانون الثاني/ يناير حوالي 4.2 درجة مئوية.

وهكذا نلاحظ من خلال التفاوت الكبير في درجات الحرارة بأن مناخ مدينة بغداد هو أكثر قساوة من المناطق الهندية الواقعة على نفس المسافة من خط الاستواء، وذلك بسبب وقوع بغداد في مناطق أكثر انخفاضاً من سابقاتها الهندية، وحيث أن الحرارة في مدينة بغداد ومنخفض بلاد النهرين في موسم الصيف، هي مشابهة تقريباً في شدتها إلى مناطق السند العليا وجاكوباباد في الهند، في حين هي أكثر حرارة نوعا ما من منطقة البنجاب، على أنها تدوم في مدينة بغداد لفترة أطول، إذ يمكن تسجيل أعلى معدل لدرجة الحرارة اليومية وهو 40.6 درجة مئوية خلال ثلاثة أشهر فصل الصيف، أي منذ حوالي منتصف شهر حزيران / يونيو وحتى منتصف شهر أيلول / سبتمبر، وان أعلى درجة حرارة وصلت إليها في بغداد كانت 49.1 درجة مئوية في الظل عام 1899، وأقلها كانت 2 درجة مئوية في ذات العام، في حين أن الغيوم التي تغطي سماء بغداد هي قليلة في فصل الصيف، إذ تمثل نسبة قدرها(0.5 درجة)[1].

وفي موسم الرطوبة فهي تتراوح بين(1.8) في كانون الأول/ ديسمبر و (2.7) في كانون الثاني / يناير وشباط/ فبراير.

---

1 الدرجة 10 تشير إلى سماء مغطاة بالغيوم بأكملها كمقياس للتقدير.

أما كمية المطر التي تسقط سنوياً، فتبلغ كمعدل (212 مليمتر) حيث منها (203 مليمتر) تسقط في الشتاء، وأن عدد الأيام الممطرة لا يتجاوز 187 يوماً، وهي مقسمة بشكلٍ متساوٍ تقريباً بين أيام الفصل البارد إبتداءاً من تشرين الثاني / نوفمبر وحتى آذار / مارس.

ومن الجدير بالذكر أن أكثر الأرقام ارتفاعاً سجل في شهر شباط/ فبراير من عام 1894م، إذ بلغ (201 مليمتر) والتي منها(158 مليمتراً) كانت قد سقطت في يوم واحد ! وهي تعّد أكبر نسبة،إذ لم تشهدها مدينة بغداد من قبل خلال 24 ساعة.

ثانيا: ولاية بغداد [1]

كانت ولاية بغداد تشكل قديماً واحدةً من أكبر وأهم أقاليم الإمبراطورية العثمانية إذ كانت تمتد من ديار بكر إلى اليمن، ومن الحدود الفارسية إلى الصحراء الشامية التي تفصل العراق عن سوريا.

وقد رأى الباب العالي في عام 1280 هـ (1868 م) وبغية إدخال بعض التطويرات الإدارية في ولاياته أن يفصل عن بغداد المتصرفيات (المقاطعات الفرعية) للموصل، وشهرزور "المسماة كركوك حالياً"، والسليمانية ليشكّل منهن ولاية جديدة تحت اسم "ولاية الموصل".

وفيما بعد، وبالتحديد في عام 1300 هـ (1884م)، فصلت الدولة العثمانية أيضا متصرفيات البصرة ونجد والمتنفك والعمارة، إذ شكلت منها "ولاية البصرة"، ومنذ ذلك الحين لم تعد تشمل مدينة بغداد سوى ثلاث متصرفيات معروفة هي:

بغداد، والحلة، وكربلاء. وقد انتقل منذ عهد قريب مركز سنجق الحلة إلى الديوانية، وبناءً عليه فقد أخذ هذا السنجق اسم هذه المدينة الأخيرة أي "الديوانية".

---

1 الفصل الثالث من الكتاب

وهكذا فقد تم تقسيم إقليم بغداد إلى ثلاث متصرفيات – كما هو حالياً – وقد تفرعت بدورها إلى عدة قائمقاميات، يحدها من الشمال ولاية الموصل وجبل حمرين، ومن الشرق سلسلة جبال تفصلها عن بلاد فارس، ومن الجنوب الصحراء التي تعيش فيها القبائل العمانية، ومن الغرب الصحراء الشامية.

إن طول مساحة العراق من جبل حمرين إلى الخليج العربي هي(711 كم)،وعرضها من عانه إلى مندلي(489 كم)، وهي بذلك تشكل مساحة (6374.679 كم مربع)، وفيما يتعلق بمتصرفية نجد فإنها معزولة بواسطة البحر من جهة وبواسطة الصحراء الكبرى من جهة أخرى، لذا لا يمكننا أن نشملها في هذا الحساب.

1- الأنهار

يروي نهرا دجلة والفرات ولاية بغداد فضلاً عن نهر صغير آخر هو نهر ديالى، ويقدم نهر الفرات خدمات جليلة للعراق، إذ ينبع مصبه من الأناضول، قاطعاً مسافة طويلة حتى يظهر أمام بيريجيك [1]، ثم يمر بدير الزور وهي متصرفية ترتبط مباشرة بإستانبول، حتى يصل ليروي ولاية بغداد بدءاً من عانه، ثم يعبر المسيب والحلة بعدها يروي أراضي المنتفك، ثم يصل أخيراً إلى القرنة حيث يلتقي مع نهر دجلة ليكونا معا شط العرب، إذ يروي هذا الأخير المزروعات وبساتين التمور الكبيرة في ولاية البصرة ويذهب ليصب في الخليج العربي.

هذا وتتفرع عنه عدد من القنوات على ضفتي الفرات وهي تخدم في ري الأراضي الزراعية ويتفرع عن نهر الفرات أيضاً نهر كبير يسمى "الهندية" إلا أن مياهه لا تجد منفذاً لها لتصب فيه، فتذهب لتضيع سدىً في الصحراء، وتؤدي إلى تكوين مستنقعات كبيرة تعيش حولها القبائل العربية المهتمة بتربية الجاموس حيث تتميز أجواء هذه المناطق بكونها موبوءة تعيش فيها الحمى بشكل مستمر، التي تخلق مختلف

1 بيريجيك: قصبة صغيرة مرتبطة بحلب آنذاك.(م)

أنواع الأوبئة التي تهلك الآلاف من السكان بين تارة وأخرى. وكانت أهوار الهندية تشكل باستمرار مأوى للقبائل العربية التي تثور أحياناً ضد الحكومة.

أما نهر دجلة، فهو ينبع من منطقة ديار بكر بعد أن يمر بمرتفعات الجزيرة، ثم يستمر بمسيرته الجليلة باتجاه الموصل وبغداد حيث يصل بعدها إلى العزيزية وكوت العمارة [1]، ويذهب ليتحد مع الفرات في مدينة القرنة.

وبخصوص الأنهار المتفرعة عن دجلة فهنالك شط الحي وشط العمارة وهذا النهر الذي من الممكن أن تستخدم مياهه بشكل أفضل، فهو لا يروي في الحقيقة سوى مساحات صغيرة من الأراضي الزراعية في هذه الولاية الواسعة.

وفي أوقات شحة المياه يكون منسوب مياه النهر منخفض جداً مما يجعل من الصعب استخدام المياه لري الأراضي الزراعية فليس هناك واسطة سوى آلات رافعة ذات نظام بدائي جداً، تدعى "نواعير "تسيّرها الخيول أو الثيران، وهي لا توفر إلا كميات ضئيلة من المياه. في حين أن الفيضانات تحدث غالباً في أشهر شباط / فبراير، وآذار / مارس، ونيسان/ أبريل، وقد تسبب أحياناً كوارث مأساوية كبيرة وذلك بسبب فيضان النهر المفاجئ بمياهه المتدفقة من جراء ذوبان الثلوج، وهي تصل من الشمال مكونة تياراً ذو سرعة رهيبة يحطم أمامه الحواجز والسدود المقامة على القنوات ويؤدي إلى غرق المزروعات وتدمير محاصيل الفلاحين الفقراء.

ومع أن هذه الحوادث غالباً ما تتكرر، إلا انه لحد الآن لم تجري دراسة جدية من اجل تفادي هذه الفيضانات التي هي حقيقة كوارث للبلد.

وفي واقع الأمر، نجد أن حواجز وسدود صغيرة عديدة أقيمت في أماكن معينة وبجهود خاصة، لكن هذه الأعمال كانت معيبة بشكل عام وهي تتطلب من أجل بقائها ترميمات سنوية دون أن توفر ضمانة حقيقية للبلد في مواجهة تلك الكوارث.

[1] مدينة العمارة حالياً، التي تقع جنوب شرق العراق.(م)

وقبل عدة سنوات أصبحت مدينة بغداد نصف مدمرة تقريباً من جراء الفيضانات، وفي سنوات أخرى وجدت نفسها في خطر محدق، وقد بقيت المدينة في فترة حكم تقي الدين باشا ولعدة شهور مطوقة بمياه الفيضان، مما سبب مع اقتراب أيام الصيف الحارة أوبئة مختلفة منها أنواع خطيرة من الحمى.

وهكذا فان الحال أصبح ملحاً جداً باتجاه حماية المدينة، وذلك بضرورة اللجوء إلى اتخاذ إجراءات فعالة من اجل تنفيذ أعمال إقامة سد بالاعتماد على خبراء في هذا المجال، وهذه المسألة الهامة تمثل مصلحة أساسية للبلد.

ومن أجل ذكر الحقائق، نقول بأن الحكومة كانت قد أعطت أوامر بهذا الشأن ولأكثر من مرة، ومنحت القروض اللازمة من اجل تقوية السدود والحواجز المقامة على الأنهر، ولكن بشكل عام نفذت هذه الأوامر مع خبرة تقنية وإدارية متواضعة جداً، حيث كانت النتائج سلبية دائماً.

وبخصوص نهر ديالى الذي ينبع من أراضي بلاد فارس قريبا من الحدود المجاورة للسليمانية التابعة لولاية الموصل (آنذاك)، فهو يمر بخانقين ليروي الأراضي الزراعية في شهربان[1] وبلدروز والخالص، ثم يتابع جريانه ليصب في نهر دجلة وفي مكان يبعد زهاء ساعتين عن بغداد، ويسبب فيضان نهر ديالى أيضاً خسائر كبيرة للغاية مع انه بفضل النهروان القناة القديمة التي حفرت في زمن الخلفاء أصبحت تعترض اليوم الفيضانات، رغم أن نصفها تقريباً طمر في بعض المناطق، إلا أنها لم تزل تستلم مع ذلك جزءاً من مياه النهر في وقت تحولت فيه الأراضي الجدبة المحيطة بها إلى مراعٍ خصبة، وقد حاول مدحت باشا في فترة حكمه أن يجعل من النهروان حوضاً إروائياً، إلا أنه لم يفلح في سعيه.

وفي زمن الخلفاء، كان قد أقيم عدد من السدود على نهري دجلة و ديالى من أجل تنظيم عملية توزيع المياه كذلك لغرض تسهيل عملية ري الأراضي لكن لسوء

---

1 شهربان: قضاء المقدادية حالياً.(م)

الحظ فإن هذه السدود دمرت منذ وقت طويل حيث لم يتبق منها في الوقت الحاضر سوى أطلالٍ مدمرة.

وكما سبق القول، فإن عملية الري تجري حالياً تبعاً لنظام بدائي قديم، وفي ظروف يرثى لها، وهذا هو أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت جزءاً كبيراً من الأراضي الخصبة في هذه الولاية غير مزروعة لحد الآن، ونحن بانتظار اليوم الذي يتقرر فيه استخدام أفضل للثروات الاقتصادية لهذه الولاية الجميلة وذلك من خلال إنشاء مشروع ري نظامي شبيه بذلك المتبع في مصر كذلك إنشاء طرق نقل عملية ومريحة.

إن جميع الأراضي البكر غير المزروعة في هذه الولاية بخصوبتها التي تدهش الناظرين، سوف لن تتأخر في أن تتحول إلى حقول مزدهرة وذلك بفضل نوعيتها الجيدة ووفرة مياهها وهذا سيزيد حتماً العوائد السنوية لهذه الولاية إلى عشرة أضعافها، إذا ما اتبعت الخطوات التي ذكرناها آنفاً.

2-المناخ

تعّد ولاية بغداد وبالنظر لموقعها الجغرافي من المدن الحارة ولكن بالرغم من حرارتها الشديدة فإن باستطاعتنا القول أن مناخها هو معتدل وصحي. فالصيف فيها أشد حرارة من مصر ولكي يستطيع السكان في المدن مقاومته فقد أجبروا على قضاء النهار في صالات تحت الأرض تسمى "سراديب"، وهي نوع من الأقبية مبنية تحت الأرض بعمق يصل إلى ثلاثة أو أربعة أمتار.

وفي بغداد كما في البصرة فإن كل منزل يحتوي على سرداب يلجأ إليه الأهالي إبتداءاً من الساعة الحادية عشرة صباحاً وحتى الساعة الرابعة مساءاً. أما الليل فهو الأكثر غنىً كما هو الأكثر فقراً فجميع الناس ينامون على سطوح المنازل في الهواء الطلق وتحت النجوم الجميلة، وتفصل السطوح المتجاورة بواسطة فواصل خفيفة من

البناء حيث لا يتجاوز ارتفاعه أكثر من قامة الإنسان. وفي أثناء الصيف لاسيما إبتدءاً من الأيام الأخيرة لشهر حزيران، وحتى الأيام الأولى من شهر آب، أي خلال فترة حوالي أربعون يوماً تهب على البلدة رياح حارة تسمى "السموم" وهي تعيق مسيرة القوافل وتعطلها عن رحلاتها حتى بالنسبة لقوافل العرب الأكثر شدة وتحملاً للصحراء. ويؤشر مقياس الحرارة في هذا الموسم على الأغلب خمسون درجة في الظل، وفي الشتاء فإن الجو بارد نسبياً إذ تهبط درجة الحرارة أحياناً في الليل إلى درجتين أو ثلاث تحت الصفر لكن ذلك يحدث بشكل نادر تقريباً، أما بالنسبة للثلج فهو غير معروف في بغداد.

وفيما يتعلق بفصل الربيع فإنه قصير جداً وهو لا يضفي ذات البهجة التي نجدها في ولايات الإمبراطورية الأخرى وذلك بسبب ارتفاع درجات الحرارة بشكل مستمر في هذا الموسم، وعلى العكس من ذلك، فإن فصل الخريف يعّد الفصل الأكثر متعةً من السنة. أما الصيف فإنه يبدأ منذ الأيام الأولى لشهر نيسان/ أبريل ولا ينتهي إلا بنهاية شهر أيلول/ سبتمبر، في حين يبقى فصل الخريف حتى الأيام الأولى من شهر كانون الأول/ ديسمبر، وينتهي فصل الشتاء تقريباً في الأيام الأولى من شهر آذار/ مارس ثم يعود الربيع لفترة قصيرة في ولاية بغداد بعد انتهاء فصل الشتاء.

ومنذ عشرون عاماً تقريباً بدأ المرء يلاحظ أن برد الشتاء آخذ بالازدياد وأن الأمطار هي أكثر غزارة، كذلك الأمر بالنسبة لفصل الصيف فقد مال إلى التناقص في درجات الحرارة، ودون شك أن ذلك سيؤدي إلى اعتدال الجو في النهار مما يساعد على زيادة عدد المزروعات في الولاية التي هي خالية اليوم من الأشجار، إذ أن الغابات القديمة قد اختفت تماماً حيث لم يتبق منها سوى عدد من الأشجار القديمة الضخمة، فقد قطعت الأشجار النحيفة بمرور الزمن وذلك من جراء استخدامها للتدفئة من قبل سكان المدن والقرى.

3- حبة حلب

إن جميع سكان ولاية بغداد دون استثناء تقريباً يحملون ندبات حبة مميزة تعرف تحت اسم "حبة حلب" لأن سكان هذه المدينة الأخيرة يحملون آثارها، ويصاب بها أيضاً الأجانب الذين يصلون إلى هذه الولاية، ولكن من الملاحظات الملفتة للنظر أن الأجانب يصابون بها عدة إصابات في آنٍ واحد وفي أماكن مختلفة من الجسم ونادراً ما تكون الإصابة في الوجه، في حين نجد نقيض ذلك لدى أهالي البلد الذين نصادف من بينهم أحياناً أناساً قد أصيبوا بتشوهات من جرائها، خصوصاً إذا أصابت الأنف فهي تدوم لما يقارب عاماً كاملاً، لذا يسمونها في البلد "حبة العام" ولكن لحسن الحظ إنها ليست مؤلمة ولا خطرة لكنها مزعجة للغاية بسبب الحكة التي تسببها في الأشهر الأولى، وعلى وجه الخصوص ندباتها الظاهرة التي تتركها على وجه المصاب.

وقد فتشوا عبثاً عن علاج فعال للوقاية منها حتى أنهم حاولوا في استانبول تحضير عقار واق وشاف من هذه الحبة لكن على حد علمنا أن العقار المكتشف لم يقدر له أن يختبر بشكل كاف إذ كان المصابون من أبناء البلد يرفضون دوماً الخضوع لاختبارات بشأنه، وذلك بسبب عدم الثقة في أن يقبلوا هذه التجارب، في حين يوجد في بغداد عدداً من الأهالي المتخصصين في معالجة هذه الحبة بأدوية معدة من قبلهم والتي أكثرها استخداماً هو عبارة عن مرهم أسود يوضع مرة واحدة على الحبة حتى تترك لتجف، وبعد ذلك على المصاب أن يلتزم بعدم لمسها حتى يتوقف قيحها. وقد أعطت هذه الطريقة نتيجة جيدة، إذ أن الإصابات التي عولجت بها قد اختفت في أعقاب عدة شهور وغالباً أنها لا تترك سوى ندبات غير مرئية تقريباً، على أن هناك ملاحظة طريفة وغريبة في آن واحد وهي أن عدد من الأجانب الذين كانوا قد نجوا من الإصابة بهذه الحبة لدى إقامتهم في بغداد قد أصيبوا بها بعد فترة من عودتهم إلى بلدانهم. هذا وليس هنالك اتفاق حول الأسباب المؤدية إلى الإصابة بهذه الحبة إذ يؤكد البعض بأن سببها يعود إلى موسم التمور، ومنها جاءت تسمية أخرى لها وهي "حبة التمور" أو "ورمة شيباني" التي أطلقها عليها الأتراك. وبحسب آخرون فإن هذه

الحبة تحدث من جراء الإصابة بميكروب تحتويه المياه.وأخيراً وتبعاً لرأي عددٍ من الأطباء - وهي الفكرة التي تبدو أكثر ترجيحاً - أن هذه الحبة تنتقل بواسطة الذباب والبعوض.

4- المحاصيل

كانت هذه المدينة مشهورة بخصوبة أرضها العجيبة، وقد فاضت أقلام المؤرخين العرب بتفاصيل عن الازدهار الزراعي لإقليم بغداد عندما وضعوا أعمال حفر القنوات وإقامة السدود على نهر دجلة واستشهدوا بسنوات أصبحت فيها وفرة المحاصيل فائضة عن الحاجة بشكل كبير، وقد أعطت الأرض حينها أضعافاً من البذور التي زرعت فيها.

ومن الجدير بالذكر أن كل ذلك لم يعد في أيامنا هذه إلا حلماً لم يتبق منه سوى الذكريات، هذا وتشير بعض المصادر إلى مناطق غنية بزراعتها لعل من بينها ناحية تسمى" الطارمية "[1]، وهو اسم يعود أصله إلى كلمتي " الطغار- مية "، فالكلمة الأولى تعني مقدار وزن يبلغ حوالي (2.000 كيلو)، والكلمة الثانية "مية "تعني بالعربية "مئة "، إذن يعني اسم هذه المنطقة" طغار المئة ضعف". وحالياً في ناحية الطارمية ذاتها يمكن أن يعطي أفضل المحاصيل وبصعوبة نسبة ثلاثون بالمئة من كمية البذور المزروعة، أما المحاصيل المتوسطة فتعطي من عشرة إلى أربعة عشر بالمئة للطن الواحد، وفي ما يتعلق بأراضي أخرى فيمكن تقدير الإنتاج فيها إلى ثمانية أو عشرة للطن الواحد، وهذا يعني أن كل كيلو من البذور يعطي ثمانية إلى عشرة كيلوات من الإنتاج الزراعي مثل ما هو معدل إنتاج المحاصيل الشتوية حيث الرئيسية منها الحنطة والشعير.

أما المحاصيل الصيفية فهي الذرة الصفراء والدخن والفاصوليا والسمسم والرز الذي يتميز إنتاجه بالوفرة العالية جداً، إذ يمكننا أن نقدر أن معدل إنتاجه لا يقل عن 20 إلى 30 للطن الواحد في السنوات الاعتيادية.

---

1 الطارمية: منطقة تقع إلى الشمال من مدينة بغداد بنحو ثلاثين كيلومتراً، ولا تزال تحمل نفس التسمية. (م)

ويزرع في الأقاليم كذلك نوعية خاصة من العدس المسمى "هرطمان" وهو يشبه كثيراً العدس الاعتيادي إلا أن طعمه مختلف تماماً، وهذه المحاصيل جميعها تزرع في جميع مناطق الإقليم باستثناء الرز الذي تحتاج زراعته إلى مياه كثيرة وهو مالا يمكن ممارسة زراعته إلا في مناطق المياه الوفيرة.

أما بخصوص الفواكه فإن التمور تشكل العنصر الرئيس في فواكه مدينة بغداد[1]، ويصنع أيضاً خل التمور الذي يتميز بطعمه اللذيذ ولا يضاهيه نظيريه في مصر أو في جنوب الجزائر. إن أشجار النخيل هي في الحقيقة موجودة بشكل طبيعي في ظروف قد يبالغ المثل العربي بشأن وصفها: "الأقدام في الماء والرأس في النار"، إنها الفاكهة المقدسة للنبي محمد (ﷺ) التي قال فيها: "قدسوا النخلة لأنها عمتكم".

وتبعاً لرواية عربية فإن الله خلق الإنسان من طين يحيط بشجرة نخيل، والتمر أيضاً هو الفاكهة المفضلة التي تشكل في الغالب مع الخبز الغذاء الرئيس للعرب.

ويجب القول أيضاً أن النخيل تعود على العرب بخدمات عديدة: ففيما عدا كونها تعطي فاكهة فإن سعفها يستخدم في صنع الأسارير الخشبية والكراسي والأقفاص وأنواع أخرى من الأثاث، وتستخدم أخشاب السعف للتدفئة أيضاً. وأخيراً ففي القرى بشكل خاص تعّد ظلال أشجار النخيل ملجئاً ممتازاً للعرب الذين يلجئون إليه لنيل قسط من الراحة بعيداً عن أشعة الشمس المحرقة.

وفيما يتعلق بأشجار الفاكهة الأخرى فإن تربة الأقاليم الممتازة والملائمة لزراعتها تزيد من عوامل انتشارها.هذا ومن الملاحظ أن فواكه البلدان الباردة كما هي فواكه البلدان الحارة بالإمكان زراعتها في هذا البلد، مثل الخوخ والبرتقال والليمون والمشمش والتفاح والسفرجل والتين والعنب والتوت والزيتون.

---

1 هناك أكثر من خمسون نوعاً من التمور الشائعة والشهيرة التي هي أكثر طلباً، من بينها الخستاوي والحلاوي والبرحي والبريم والبدراية والساير والزهدي والأشرسي وغيرها.

أما الخضروات فإن جميعها تزرع في مدينة بغداد، وهي ذات مذاق لذيذ ومظهر شهي فضلاً عن كونها تباع بأسعارٍ زهيدة، في حين لا يوجد سوى البطاطا التي حتى يومنا هذا تقاوم جهود المزارعين بشأن توسيع زراعتها ونحن لا نعلم إلى ماذا يعزى هذا الإخفاق لكننا نعتقد أن المحاولات التي جرت في هذا المجال لم تجد لها ظروفاً طبيعية ملائمة.

أما نبات " الفطر " فهو متروك ومهمل، كذلك الحال بالنسبة لـ"الكمأ " الذي ينمو بكثرة وبشكل طبيعي، في حين أن المسلمون لا يحبونه على الرغم من أنه مرغوب جداً لدى المسيحيين فهو يباع في المدن بسعر رخيص جداً الذي يبدو لدى الأوربيين غير معقول،(ما يقارب عشرون فرنكاً للكيلو الواحد !)[1].

وفي زمن نامق باشا[2] حاول أحد وجهاء البصرة وهو مالك ثري زراعة القهوة والنيلة، وقد توصل إلى نتائج مشجعة اتجه بعدها نحو محاولة تربية دودة القز الذي نجح فيها أيضاً.

وبشأن إنتاج الحرير من دودة القز فهو مهمل في الوقت الحاضر، إذ أن قليل من المالكين يهتمون بهذه الصناعة المربحة جداً في بلد تنمو فيه أشجار التوت في وقت قصير، وفيما يخص الشرانق التي يتم الحصول عليها هنا فهي رديئة على الأغلب، في حين نحن واثقون تماماً انه في حالة الاهتمام بهذه الصناعة وتشجيعها من خلال بناء مجمع لتربية دودة القز، وان هذا المشروع من الممكن أن يقدم في فترة قصيرة جداً نتائج باهرة، ويؤكد البعض أن مدينة بغداد كانت فيما مضى تنتج أفضل أنواع الحرير المختلفة، وبكميات كبيرة جداً، أما اليوم فليس هناك من اهتمام يذكر، فيما عدا زراعة أشجار التوت.

---

1 استنتاج غير موفق من لدن الكاتب، فليس هناك قيد أو شبهة تمنع تناول "الكمأ" لدى المسلمين،ولعله يحظى بإقبال متميز حتى يومنا هذا لاسيما في المناطق الشمالية والغربية من العراق.(م)

2 عيّن نامق باشا والياً لبغداد عام 1852م (1269هـ)، وبقي لمدة سنة ثم عاد ثانية في عام 1861م (1278هـ)، فحكم سبع سنوات.كان صارماً وضيق التفكير، أدخل البلاد في اضطرابات وفوضى إلا أنه ساهم في تشييد عددٍ من الأبنية والتي أكملها مدحت باشا من بعده بعد أن استلم زمام ولاية بغداد في نيسان / أبريل عام 1869م(1286هـ).

5- السكان

إن الجزء الأكبر من سكان هذا الإقليم يتألف من العرب، أما البقية فهم من الفرس والأكراد، والأتراك فضلاً عن بعض الأوربيين، حيث القسم الأكبر منهم إنكليز وألمان.

ويتميز العرب بشكلٍ عام بمظهر حسن فهم أقوياء جداً بالرغم من ضعف بنيتهم، لاسيما أولئك الذين يسكنون الصحراء الذين يتميزون بلون بشرتهم الأسمر الجميل والبرونزي، وقد وهبوا ذكاءً يعطيهم قابلية ممتازة في عملهم، إذا ما تم توظيفه بشكل سليم، ويتصفون كذلك بشكل خاص بحيوية العيون وبشكل عام فإن لون شعرهم يميل إلى اللون البني، في حين انه من النادر أن تصادف أناساً ذوي شعر أشقر أو عيون زرقاء من بين العرب.

لقد استعرنا من المؤلفات العربية المكتوبة من قبل المؤرخ "القزويني" الوصف الآتي للعرب، وهو أصيل بما فيه الكفاية، إذ يقول: ((العرب عامة ذووا قوام متوسط، يتميزون بأجسام نحيلة، وكأنما أضعفتهم حرارة الشمس الشديدة، لون شعرهم اسود، كما هو لون عيونهم وهي تتلألأ ذكاءً، أما النساء فلهن سحنة صفرة تقريباً وبنية جيدة وعضلات متناسقة، في حين يميل لون بشرتهن إلى لون بيض النعام تقريباً)).

وبالنسبة لعدد سكان ولاية بغداد فإنه لم يجر أبداً إحصاء سكاني دقيق، كما هو الحال في الوقت الحاضر لذا فانه من الصعب جداً إعطاء أرقام دقيقة للسكان، في حين أنه تبعاً لرأي عدد من الأشخاص الأفضل تعليماً في الولاية، فإن سكانها الحاليون ربما يبلغون(923.000 الف نسمة)، ويمكن أن تقسم كالآتي:

بغداد وضواحيها	448.000 نسمة
الحلة	260.000 نسمة
كربلاء	215.000 نسمة
المجموع	923.000 نسمة

وهذا يعني(نسبة 2.66 شخص) لكل كيلومتر مربع واحد، وتحت هذا الرقم تندرج العشائر البدوية المتواجدة في الولاية، وفي الحقيقة يمكننا تقسيم سكان الإقليم إلى ثلاث تصنيفات:

- السكان الحضر.
- العرب شبه البدو.
- القبائل البدوية.

فالصنف الأول يمثل المتحضرين أو بالأحرى الذين يمتلكون ميلاً أكبر للحضارة، وهم يشكلون سكان المدن والقرى. أما الصنف الثاني فيشمل مزارعي القرى والعشائر العربية التي ليس لها سكن دائم (الرحل) في المدن والقرى والمهتمين بتربية المواشي والزراعة، وهم يعيشون في أكواخ أو تحت الخيام.

أما بالنسبة إلى الصنف الثالث، فيضم العرب البدو الذين غالباً ما يغيّرون مكان إقامتهم وهم يعيشون حياة بطالة، كما يعتمدون بشكل أساس على الكلأ كمصدرٌ وحيد لعيشهم.

إن هذه القبائل البدوية هي في صراع دائم مستمر بعضها مع البعض الآخر، وفي ذات الوقت تعّد متمردة تجاه أي نوع من الأوامر الإدارية الحكومية إذ لا يعرفون سلطة أخرى سوى سلطة شيوخهم، لذا فان الحكومة تمارس إزاءهم سلطة رسمية فحسب.

6- الديانات

يتكون سكان الإقليم من المسلمين (سنة وشيعة) واليهود والمسيحيين، وتوجد أيضا طائفة صغيرة العدد تسمى " الصابئة"، والصابئة الذين تحدث عنهم القرآن يدعون إلى مشايعة ونصرة جان المعمدان.

وبالنسبة للمسلمين فبشكل عام، الأتراك وعرب أفريقيا وعرب شبه الجزيرة العربية هم من (السنة)، وبالمقابل فإن سكان بلاد فارس وجزء كبير من مسلمي الهند وقسم من عرب الخليج والعشائر الساكنة على ضفاف دجلة والفرات جنوب بغداد هم من (الشيعة).

أما بالنسبة لليهود، فهم كثيرون في هذه الولاية ويتبعون في ديانتهم كما هو معروف، نصوص التلمود لكن معظمهم كرّس نفسه للقيام ببعض الشعائر الدينية القاسية وأخضعوا أنفسهم للحرمان الذي يبدو مبالغاً فيه حتى من وجهة نظر إخوانهم في الدين من الأوربيين.

والمسيحيون في بغداد، القسم الأكبر منهم كاثوليك موحدين وهناك أيضاً أرمنيون غريغوريون، وعدد من الأرثودوكس الشرقيين، في حين يشكّل الكاثوليك الموحدون عدة طوائف، منهم الكلدان والسريان والأرمن الكاثوليك واللاتين والمارونيين والكاثوليك الشرقيين.

7- اللغات

إن لغة الولاية الرئيسة هي العربية، إلا أن اللهجة العامية المتداولة تختلف عن نظيرتها في سوريا ومصر في حين أدخلت العديد من الكلمات التركية إليها، كذلك الفارسية وطائفة من الكلمات الإنكليزية أيضاً.

وعلى الرغم من أن اللغة التركية هي اللغة الرسمية، إلا أن الفارسية منتشرة جداً في ولاية بغداد بسبب العدد الكبير من الفرس الذين يسكنون في الكاظمية إحدى مناطق مدينة بغداد، كذلك في المناطق المقدسة في كربلاء والنجف وسامراء وأيضاً بسبب الزيارات المتواترة والمنظمة من قبل الزوار الفرس، فضلاً عن ذلك وبما أن هناك ذهاب وإياب مستمر للأكراد والهنود فإن عدد من الكلمات التي تتكلم بها تلك الأقوام قد ولجت اللغة العربية، ونلاحظ أيضاً أن في بغداد يوجد اختلاف كبير للغاية بين اللهجة المتكلمة من قبل المسلمين وتلك التي يتكلمها المسيحيون أو اليهود.

أما بالنسبة للغات الأجنبية فمنذ عدة سنوات أنشئت بعض المعاهد الفرنسية لغرض تعليم الشباب في الولاية، إذ بدأت الفرنسية تنتشر كثيراً بين المسيحيين واليهود بشكلٍ خاص، غير أنه في البيئة التجارية نصادف عدداً كبيراً من الأشخاص يتكلمون الإنكليزية، ولكن الفرنسية تبقى هي السائدة.

8- التعليم

في زمن الخلفاء كانت هنالك جهوداً جبارة تبذل من أجل نشر التعليم في هذا الإقليم، وقد تأسست في حينها مراكز للعلوم والآداب والفنون وغيرها.

وعندما نتمعن في قراءة تأريخ بغداد والتفاصيل المتعلقة بمدرسة هذه المدينة التي كانت تتنافس مع نظيرتها في البصرة، فإنه ليس بالإمكان أن نمنع أنفسنا من التعبير عن الأسف العميق لما آلت إليه الحالة اليوم. ففي ما يتعلق بالتعليم والتثقيف نجد أن هذا الإقليم هو أحد أكثر أقاليم الإمبراطورية العثمانية تأخراً !!

وفي حقيقة الأمر، فإن مدحت باشا كان قد بدأ بتأسيس عدد من المدارس في بغداد، وقد سار على خطاه الولاة الذين خلفوه في الحكم مع تفاوت اهتمامهم بمسألة التعليم العام ولكن ولسوء الحظ فإنه منذ ذلك الوقت لم تحقق هذه المدارس إلا تقدماً ضئيلاً، ويستطيع المرء التأكيد بأنها وجدت نفسها في حالة مهملة تقريباً فيما عدا المدرسة الإعدادية العسكرية التي حققت تطوراً ملموساً.

وبالنسبة إلى المناطق الأخرى التابعة للولاية فهي لا تمتلك إلا مدارس ابتدائية حيث لا يتعلم فيها الطلاب سوى قراءة القرآن.

9- المدارس

يمتلك المسلمون في بغداد عدداً من المدارس التي من بينها المدارس الحكومية مثل: المدرسة العسكرية الابتدائية المسماة بـ "الرشيدية العسكرية"، وهي تضم نحو (200 تلميذاً)، والمدرسة العسكرية الإعدادية، التي تضم الطلبة المتخرجون من

المدرسة الأولى، وهي تضم نحو (50 تلميذاً)، هذا وان الشباب الذين يكملون دراساتهم ويحصلون من هذه المدرسة على شهادة الدراسة يقبلون في المدرسة العسكرية العليا في استانبول ويستطيعون بعد ثلاث سنوات دراسية الحصول على رتبة ضابط. إن تنظيم هاتين المدرستين هو على غرار بقية المدارس العسكرية في أقاليم الإمبراطورية الأخرى.

هذا وتوجد مدرستين حكوميتين مدنيتين إحداهما ابتدائية وهي ((الراشدية الملكية)) التي تضم نحو (250 تلميذاً)، والأخرى إعدادية وهي (الإعدادية الملكية) التي يتراوح عدد تلاميذها ما بين (150 إلى200 تلميذاً).

أما مدرسة الفنون والمهن التي أسسها مدحت باشا فإنها تعّد من أكثر المؤسسات التعليمية فائدة للبلدة فأبناء الأهالي لاسيما أبناء الأرامل يلتحقون بهذه المدرسة من أجل تعلم مهنة ما، كتصليح الأحذية أو النجارة أو الحدادة أو الخياطة وقد أنشأ مخزناً تعرض فيه للبيع منتوجات الأثاث والأشياء الأخرى المصنعة من قبل الطلاب وهو تابع لهذه المدرسة.

ويوجد في المدينة أيضاً، حوالي أربعون مدرسة إسلامية صغيرة حيث تقدم تعليماً موجزاً جداً فيها معلم يقوم بتعليم التلاميذ قراءة وكتابة اللغة العربية فقط. وبالنسبة للمدارس المسيحية فلدى الكاثوليك عدة بيوت لتعليم الأطفال من كلا الجنسين، في مقدمتها الكلية الفرنسية للآباء الكرمليين التي تضم مدرستين فيهما الدراسة مجانية تماماً.

وتضم المدرسة الأولى أطفالاً صغار يتعلمون فيها دروساً تمهيدية في اللغتين العربية والفرنسية، أما الثانية فلديها مناهج أكثر توسعاً تدرس فيها اللغات العربية والتركية، والفرنسية والإنكليزية.

والمدرسة الكاثوليكية الثانية للذكور هي "العهد الكاثوليكي"، يديرها أساقفة من أهالي المدينة تحت إشراف رئيس أساقفة سوريا، هذا ويقدر عدد الطلاب في هذه المدرسة الكاثوليكية بنحو (2500 تلميذاً).

وقد أسس السيد (هنري التامير) رئيس الأساقفة السابق لمدينة بغداد والممثل البابوي في بلاد النهرين مؤسسة كبيرة لتعليم الفتيات الشابات وعلى نفقته الخاصة، إذ تدار هذه المدرسة من قبل الأخوات الفرنسيات لمثلية (تورس)[1]، التي حققت نجاحات كبيرة منذ إنشائها، هذا وتتعلم فيها الفتيات من جميع الطوائف اللغة الفرنسية والعربية والموسيقى والرسم والأعمال اليدوية.إن الخدمات التي قدمتها هذه المدرسة إلى أبناء المدينة، أهلتها بكل جدارة لتكون لها مكانة كبيرة ومتميزة.

وقد أنشأ السيد تامير في بغداد أيضاً صالة مستشفى للأطفال الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث إلى ست سنوات، وقد أصبحت هذه المؤسسة أيضاً تحت إدارة الأخوات الفرنسيات لمثلية (تورس).

ويمتلك الأرمن – الغريغوريون مؤسستين تعليميتين إحداهما للذكور والأخرى للإناث، إذ تضم المدرسة الأخيرة مئات التلميذات يتعلمن فيها الأرمنية والفرنسية ومع أنها تدار من قبل أشخاص ليسوا رجال دين، إلا أن هذه المدرسة تخضع لإشراف رجال الدين الأرمن بصورة غير مباشرة. أما مدرسة الذكور، فهي تضم نحو(200 تلميذ) يتعلمون فيها الأرمنية، والتركية والفرنسية.

كما يمتلك اليهود في الحي السكني التابع لهم مؤسسة تعليمية كبيرة، هي مدرسة "العهد اليهودي" تعطي دروساً في تعليم اللغة العربية والفرنسية والإنكليزية، وتدار هذه المدرسة من قبل لجنة خاصة مؤلفة من عدد من المعلمين الفرنسيين.

---

1 تورس (Tours): مدينة في فرنسا، العاصمة السابقة لتورين، تقع على بعد 225 كم جنوب شرق باريس و تضم مؤسسات دينية عديدة، منها مطرانية المدينة وكاتدرائية (سانت – جاتيا). (م)

في حين أسس قبل عدة سنوات بيت لتعليم الفتيات الشابات تحت إدارة سيدة فرنسية تساعدها معلمات تلقين تعليمهن في الكنيسة. هذا ويمتلك المجلس اليهودي أيضاً، عدداً من المدارس الابتدائية الصغيرة يديرها طائفة من الحاخامات تدرس فيها اللغة العبرية ونصوص التلمود، وفي معظم هذه المدارس يتعلم الطلاب قراءة وكتابة اللغة العربية.

وبعد أن أحصينا جميع المؤسسات التعليمية في مدينة بغداد فمن المستحسن أن نتطرق إلى البعثة الفرنسية للآباء الكرمليين التي أسست أول مؤسسة تعليمية حديثة في المدينة.وسنرى في أدناه الظروف الصعبة التي رافقت هؤلاء المبشرين لكي يحققوا هدفهم في تأسيس مقراً لبعثتهم في هذه المدينة بشكل تام.

ففي عام 1638 م فوضت سيدة فرنسية ثرية محبة للخير تدعى (مدام سانت روجارد) الأب برنارد من كنيسة تيريز للرهبان الكرمليين وأعطته مبلغاً قدره مئة ألف فرنك، ودعته للذهاب إلى الشرق بهدف إنشاء بعثة فرنسية لكي تصبح في معونة المسيحيين هناك، وقد توجه الأب برنارد فعلاً سالكاً طريق بلاد فارس، فوصل إلى أصفهان حيث قصد مقر الآباء الرهبان الكابوشيين الذين كانوا من قبل قد أسسوا بعثة في تلك المدينة.

وفي هذه الفترة سمحت الحكومة العثمانية للرهبان الكابوشيين بالمجيء من وقت لآخر بزيارة المسيحيين في بغداد لكنها منعتهم من أن يقيموا فيها.

وفي العام 1628 م حصل الآباء الكابوشيين على رخصة إنشاء مؤسسة صغيرة في بغداد، إذ شغلوا بيتاً كان السكان المسيحيين يذهبون إليه خفيةً لكي يمارسوا عبادتهم متخذين في ذات الوقت شتى وسائل الحيطة والحذر.

وقد استمرت هذه الظروف حتى عام 1730 م عندما رسم الأب عمانوئيل من كنيسة (سانت ألبرت) للرهبان الكرمليين أسقفاً لبغداد وقنصلاً عاماً لفرنسا فيها وقد

ذهب إلى مدينة "بونديشيري"[1] في الهند وحصل على رسالة من حاكم هذه المدينة موجهة إلى السلطان أحمد باشا الذي كان حينذاك الحاكم العام لولاية بغداد، وبفضل هذه التوصية وبعد خمسة أعوام من الالتماسات المقدمة إليه أصدر الحاكم للأب عمانوئيل "فرماناً" أعطاه بموجبه صلاحية بناء كنيسة خاصة، وبعد اكتمال بناء هذه الكنيسة استطاع الأب عمانوئيل في يوم 14 تموز / يوليو عام 1731 م أن يقيم لأول مرة قداساً فيها.

وفي عام 1742 م، عيّن الأب عمانوئيل أسقفاً لمدينة بغداد وبابل، وبهذه المناسبة سماه ملك فرنسا لويس الرابع عشر قنصلاً لفرنسا في بغداد.

وقد أصبحت البعثة منذ ذلك التاريخ معتمدة ومعترف بها من قبل السلطات العثمانية التي رأت نفسها ملزمة باحترام رئيس البعثة بسبب تمتعه بالصفة الرسمية. وقد توفي السيد عمانوئيل في عام 1773 بسبب مرض الطاعون الذي قتله ببغداد آنذاك، في حين عمل خلفائه في تطوير عمل البعثة ومهامها بشكل مستمر، حيث ازداد عدد المسيحيين في الولاية تبعاً لذلك.

وبالنسبة للمؤسسات التعليمية فلم تكن توجد في البدء سوى مدرسة صغيرة يتعلم فيها عدد محدود جداً من الأطفال المسيحيين دروساً في التعاليم الدينية والقراءة والكتابة أيضاً.

وقد وصل بغداد في سنة 1858 م عدد من الأساقفة في بعثة دينية تضم مطران كنيسة الأخت مارني وماري جوزيف من كنيسة اليسوعيين ودامیان من كنيسة الأخت تيريز (وهذا الأخير كان طبيباً في كلية باريس)، وقد اهتمت هذه البعثة بإعداد وتنظيم المدرسة التي بفضل جهودهم ومن جاء من بعدهم أن أصبحت هنالك اليوم واحدة من أكثر المؤسسات التعليمية أهمية، تقوم في المدينة بنشر اللغة والأفكار الفرنسية.

---

1 بونديشيري (Pondicchery): مدينة في الهند تضم مؤسسات فرنسية عديدة، تقع على ساحل كوروماندیل احتلها الفرنسيون عام 1674، ثم أصبحت مقراً لشركة الهند الشرقية. (م)

10- الأخلاق

إن العرب الذين يسكنون ولاية بغداد هم بشكل عام يمتلكون أخلاق الفروسية ويقدمون للزوار الأجانب أفضل مراسيم الضيافة. ويمتلك هؤلاء قليلا من علم الفراسة والتجربة على سبر الأفكار في تفحص سحنة وجود البشر وغالباً ما سنحت لنا فرصة ملاحظة شيوخ العشائر شبه البدوية الساكنين في ضواحي المدينة وقد وجدوا أنفسهم تحت مشورة نائب متصرف المدينة من أجل الفوز بمزايدة رسمية لأراضي المحافظة وهم يسعون لسبر أفكار الموظف من خلال إشارات وإيماءات متبادلة فيما بينهم بهدف تحقيق مبتغاهم.

11- الصناعة

إن الصناعة في مدينة بغداد هي بكل تأكيد متأخرة جداً كما هو حال مثيلاتها في جميع أقاليم الإمبراطورية العثمانية.

وبشكل عام فإن الأدوات المستخدمة في المعامل والورش بدائية للغاية، حيث أن استخدام المكائن الحديثة نادر جداً، وبالنسبة للمكائن التجارية فهي تقريباً غير معروفة في الصناعة، فضلاً عن ذلك فإن عملية استخدام هذه المكائن الأخيرة ليس ممكناً إلا في حالة توفر الفحم الأرضي بأسعار مناسبة لأن هذا المحروق يأتي حالياً من بريطانيا وبأسعار مرتفعة تصل إلى (120 فرنك للطن الواحد) مما يجعل من الصعب استخدام المكائن البخارية في الصناعة.

وسوف نقدم في أدناه مدونة عن المواد الأساسية المصنوعة في مدينة بغداد، نذكر في مقدمتها "الإزارات"، ثم البراقع أو الخمارات التي تنسج بأيد حرفية للنساء المسلمات والمسيحيات واليهوديات اللواتي جميعهن يستخدمنها على نطاق واسع، وهي تصنع كذلك في سوريا إلا أن بغداد تعتبر متخصصة بصناعة تلك البراقع المتقنة جداً، ذات الألوان الزاهية، التي بشكل عام تعد الأكثر مبيعاً في تركيا، وهي تصنع من

القطن والحرير وبألوان متعددة في حين تتفاوت جودتها وثمنها من نوع لآخر، فبعضها موشى برسوم من خيوط ذهبية يصل ثمنه إلى ثلاثمائة فرنك فرنسي.

وتستخدم النساء اليهوديات كذلك براقع ذات لون أسود من الحرير أو من القطن، مصنوعة كذلك في البلدة، ومنذ عشرة سنوات تقريباً أخذ تصدير الإزارات إلى استانبول يتزايد دون توقف وفي عملية الموازنة الرسمية للتصدير ليست هنالك إشارة خاصة للإزارات المصدرة للخارج مما يعني أنها درجت ضمن إجمالي المواد المصدرة.

وفي المرتبة الثانية، تأتي "الكوفيات" وهي نوع من الأوشحة الكبيرة بألوان مختلفة منسوجة من حرير أو من قطن ومزينة بأهداب هي أيضاً إحدى المواد المصنوعة بكثرة في مدينة بغداد وتشكل خصوصية في صناعتها، وأخيراً يأتي "العقال" وهو عبارة عن حبل من وبر الجمل يستخدمه الرجال لتثبيت الكوفية على الرأس التي هي بمثابة زينة وعزة الرأس العربية.

وهناك صناعة أخرى هامة في المدينة، وهي عبارة عن مطرزات من خيوط الحرير غير المغلي تسمى "الشعري" تأتي من الهند حيث تستخدم هذه المطرزات في صناعة الملابس الرجالية والنسائية ولعمل أغطية السرائر... الخ.

ونذكر كذلك الأحزمة المسماة "كمر" المستخدمة من قبل النساء، وتلك المسماة "هاياسا" المستخدمة من قبل الرجال وهذه الأحزمة منسوجة من خيوط الحرير الممزوج بخيط من الذهب التي هي أيضاً تعدّ من الصناعات التي تخصصت فيها مدينة بغداد.

وفي الكاظمية إحدى مناطق مدينة بغداد يصنع نوع آخر من أل أوشحة الحريرية التي تصدر إلى مصر حيث يستخدمها الفلاحون بشكل واسع النطاق.

كما توجد معامل لصناعة المنسوجات، تنتج كميات كبيرة جداً من الأقمشة القطنية المعروفة تحت اسم "لنكا" تجهز ألبسة للفقراء حيث تزود بغداد بها بقية المدن والقرى وبكميات كبيرة.

كمـا تـصنع في البلـدة كـذلك أدوات منزليـة للطـبخ مثـل القـدور والمراجـل والطناجر... الخ، مع أغطية حمراء من مناشيء أوروبية مختلفة.

وفيما عدا المعمل العائد إلى الحكومـة المسمى (عنجانـة) حيـث تـصنع الألبـسة والأحذية للجيش، فإنه توجد عدة معامل أهلية لصناعة الأحذيـة، وأخـرى للـسراجة وصناعة الخزفيات حيث تصنع الأباريق الفخارية والأكواز التي تستخدم في تبريد المـاء وتصنع كذلك الأسارير والكراسـي مـن أخـشاب سـعف النخـل، في حـين تـستخدم أوراق السعف ذاته في صناعة السلال والحصران، فضلاً عن ذلـك تـصنع مـن سـعف النخل قفات مدورة، وهي نوع من القوارب المغطاة بالزفـت تـستخدم هـذه القـوارب الصغيرة بشكل عام في عبور الأنهر.

12- التجارة

بعد أن مرت تجارة بغداد بفـترات مـن الرخـاء والازدهـار، فقـد أصـبحت منـذ عشرون عاماً تمر بحالة من الكساد التـام إذ أن هـذه الولايـة الـتي كانـت تـشكل قـديماً مركزاً تجارياً هاماً، وجدت بشكل مفـاجئ، جـزءاً مـن تجارتهـا تهـرب لمـصلحة مـدن أخرى مجاورة أدى إلى توسع تجارتها وكانت سبباً في تطورها على حساب بغداد.

إن ولاية بغداد كانت منذ وقت طويل نقطة التقاء لعدة طرق، وكانت تعّد دائمـاً مركزاً لمرور البضائع القادمة من بلاد فارس ومن المنطقة العربية، بل وحتى من سـاحل (ملبار) في الهند، كذلك الحال بالنسبة للبضائع القادمة من أوروبا عـن طريـق البـصرة والمرسلة إلى هذه المدينة.

وهنالك قوافل عديدة تغادر يومياً تقريبـاً مـن بغـداد إلى دمـشق وحلـب، وهـي تنقل بضائع قادمة من جميع الأرجاء فضلاً عن منتجات هذه البلدة، إذ أنها في الحقيقـة طريق النقل الأسرع والأقل تكلفة للتجارة في المشرق.

في حين قام مشروع شق قناة السويس بتغيير تلك الحالة، إذ أن خطوط الملاحة التي كانت سالكة بين البصرة والهند وأوروبا منعت عن بغداد مرور بضائع الهند وجزءاً كبيراً من بضائع بلاد فارس.

وفي وقت سابق كانت بلاد فارس ترسل إلى بغداد تبغ التركيلة من أصفهان وشيراز وكاشان والحرير من رشد ومازندران والسلع الغذائية الأوربية والأفيون والصمغ والفواكه الجافة للتصدير إلى أوروبا وسوريا ومصر.

وبالمقابل، فان بلاد فارس تستورد من ولاية بغداد جميع المواد المصنعة كالأقمشة القطنية والجوخ والأنسجة الحريرية والسلع الغذائية الأوربية القادمة من الهند وأوروبا، وهذه المنافذ هي حالياً مغلقة نهائياً.

هذا وتستورد بلاد فارس اليوم جميع البضائع التي تحتاج إليها عن طريق مرفأ " بوشهر " وبكميات كبيرة تصل إلى آلاف الأطنان من الأقمشة القطنية الواردة إليها من ليفربول ومانشستر والهند التي تدخل إليها بعد توقف، كذلك آلاف الأطنان التي تدخل إليها من مرسيليا، كالسكر المصفى وهو النوعية المفضلة دون غيرها لدى سكان البلاد، إذ تمثل هذه المادة العنصر الرئيس في تجارة فرنسا مع بلاد فارس.

وعن طريق " بوشهر "، ترسل بلاد فارس منتجاتها إلى الهند وأوروبا وسوريا ومصر، وبذلك لم يتبق لديها اتصال مع ولاية بغداد سوى كرمنشاه التي ترسل إلى هذه البقعة كمية ضئيلة من بضائعها.

إن البضائع المصدرة إلى أوروبا والهند هي بشكل أساسي السلع الغذائية الآتية:

الحنطة والشعير والذرة والسمسم والتمور والفاصوليا والحمضيات، والأصماغ والأفيون وأنواع أخرى من المخدرات، ونشير هنا أيضاً إلى السجاد الذي يصل عن طريق كرمنشاه وبلاد فارس بشكل عام ومن بغداد ترسل أيضاً من ذات الطريق إلى

بلاد فارس جزءاً من البضائع التي تصل من أوروبا مباشرة عن طريق البصرة، مثل الصناعات المختلفة والسكر وغيرها من السلع الأوربية.

أخيراً فان بغداد تستورد المنتجات الخاصة بصناعتها المحلية من ولايات الإمبراطورية الأخرى، لاسيما الموصل ودمشق.

وقبل عشرون عاماً أنشأ "البنك الإمبراطوري الفارسي" فرعاً له في بغداد لكن هذا الفرع ألغي بعد عدة سنوات وذلك من جراء تسوية تمت بينه وبين "البنك الإمبراطوري العثماني"، وهذا الأخير له فرع هو المؤسسة المالية الرئيسة للمدينة والتي تقدم أعمالاً متميزة جداً.

وهناك تجارة هامة أخرى في الولاية هي" تجارة المواشي" أي تصدير الماشية من العراق إلى مصر والشام، وقد ازدادت هذه التجارة بشكل ملحوظ منذ عدة سنوات فقد أعطت شحنات التصدير الأولى نتائج مشجعة مما دفع المصدرون للبحث عن سبل جديدة لتوسيع هذه التجارة، إذ أرسلوا خلال السنوات التالية عدداً من الخراف والثيران والجمال والجاموس. في الوقت الذي كانت وفيات الجاموس قد سببت في عام 1913 خسائر كبيرة. وكانت عدد الخراف المصدرة سنوياً من ولاية بغداد إلى الخارج لا تقل عن (6000 ألف رأس).

وخلال سنوات المطر الغزير،حينما تصبح المراعي أكثر خصوبة فإن رحلة الجاموس لا تجد صعوبة تذكر، وعلى العكس من ذلك حينما تكون الأمطار شحيحة فإن فقدان المراعي يسبب هلاك أعداداً كبيرة من الجاموس والذي يحتاج عادةً إلى قضاء فترة تزيد عن شهرين لكي يصل من الموصل إلى مصر مركز بيع الماشية آنذاك، وتحديداً إلى مدينة الإسكندرية.

وبالنسبة لهذا النوع من الماشية فإنهم لا يرسلون منه إلا قطعاناً قليلة وذلك لأنها لا تستطيع تحمل البرد لاسيما خلال رحلة طويلة جداً، أما بالنسبة إلى الخيول فإن من المهم أن نذكر أن تصديرها إلى الخارج قد حظر لعدة سنوات بهدف الحفاظ

على سلالتها العربية الأصيلة. وكان الباب العالي قد أصدر أوامر صارمة بهذا الصدد، في حين لا نعتقد أن هذه الأوامر قد طبقت بشكل دقيق في الولايات الأخرى للإمبراطورية. أما فيما يتعلق بولاية بغداد فإن من المؤكد لدينا أنها لم تنفذ بدقة إذ انه ولعدة مرات يمسك حرس الحدود بقوافل مهربة من تلك الخيول التي يتم حجزها وبيعها لحساب الدولة، على الرغم من أن ذلك لم يمنع المهربين من الاستمرار في عملياتهم الهادفة في أغلب الأحيان إلى تهريب تلك الخيول وبشكل مستمر إلى الهند.

وكان عدد كبير من المهربين يسلكون الطريق المجاور للحدود العثمانية – الفارسية وذلك بمحاذاة مندلي وبدرة، ثم يمرون بالقرب من الطيب[1]، بعدها يعودون إلى المحمرة.[2]

في حين يسلك آخرون الطريق المقابل له تماماً ماراً بالحلة فالديوانية فالسماوة ثم المنتفك(الناصرية فما بعد) فالزبير، ثم عند ضواحي هذه المدينة يعبرون شط العرب بواسطة قوارب صغيرة لكي يصلوا إلى المحمرة حيث تعد الملجأ من أية مطاردة قد تقوم بها القوات العثمانية.

وفي المحمرة يجبر المهربون على دفع رسوم كمركية فرضها شيخ المحمرة مقدارها ستون " قراناً " فارسياً لكل حصان، وهو ما يعادل (جنيهين تركية)، أي ما يعادل حوالي(46 فرنكاً فرنسياً) وبعد دفع هذه الرسوم فإن حاكم المحمرة يقوم بإعطائهم إجازة مصدقة تشير إلى أن أصل هذه الخيول فارسية.

وقد دامت هذه التجاوزات وقتاً طويلاً في وقت أبقت فيه الدولة العثمانية على حظرها المفروض على تصدير تلك الخيول. وفيما بعد قررت الحكومة رفع الحظر والعمل على جباية الرسوم الكمركية بنسبة تصل أي 8٪ من ثمن الحصان المصدّر، ولا يستوفى رسم في حالة تصدير الخيول غير الأصلية. وهذا يعني أن التصدير يكون

---

1 قصبة إلى الشرق من مدينة من العمارة، قريباً من الحدود مع إيران.(م)

2 اليوم بلدة إيرانية تقع على نهر الكارون قريبة من مدينة البصرة، أقصى جنوب العراق.

حراً (أي من غير رسوم)، وهذا ما زاد من عمليات الغش بشأن عدم دفع الرسوم للخيول الأصلية مقابل "البخشيش [1] للمفتشين. وهذا ما جعل المرء يبدو محقاً في التشكك بالمفتشين المكلفين بفحص أصالة الخيول.

وعلى هذا الأساس بدأ يلاحظ اختفاء الخيول الأصلية ولتقليل تلك الأضرار أمرت الحكومة إدارة الكمارك بعدم تسليم أية رخصة تصدير، لا للخيول ولا للبغال

دون استلام مبلغ خمسمائة قرش عن الرأس الواحد (حوالي 115 فرنك فرنسي) وقد قلص هذا القرار الأخير حركة التصدير إلى حد ما مع أن البعض استمر في تصدير الخيول عن طريق الغش.

في تلك الأثناء كانت بريطانيا بحاجة لشراء ألفين إلى ثلاثة آلاف بغل لجيشها في الهند، وقد كلفت مندوباً عنها لشراء كافة البغال الموجودة في ولاية بغداد وإرسالها إلى البصرة، وقد وصل المندوب إلى المدينة، وعلم بضريبة الخمسمائة قرش المفروضة على كل بغل فعاد مسرعاً إلى المحمرة، حيث اشترى منها مئات البغال التي جلبها له المهربون، وذلك دون أن يدفع شيئاً من الإتاوة للدولة العثمانية.

وفي عام 1913 وبرغم جميع الاحتياطات التي اتخذتها الدولة العثمانية فإن ستة آلاف من الخيول كانت قد وصلت إلى الهند على مدار العام وذلك بفضل وضع المحمرة التي من خلال موقعها على الحدود الفارسية مقابل الحدود التركية جعل منها ملاذاً للمهربين.

13- الحيوانات

كانت ولاية بغداد قديماً مليئة بالحيوانات المتوحشة والأليفة على حدٍ سواء، ولكن منذ أن تطورت وتوسعت الزراعة فيها لاسيما بفضل إصلاحات مدحت باشا الذي أدخل إلى الولاية نظام سجل المساحة (الطابو)، فقد هربت الحيوانات المتوحشة

[1] كلمة عامية تطلق في العراق على الهبة التي تعطى مقابل عمل معين، وأوردها الكاتب هنا بمثابة الرشوة.(م)

نحو جبال بلاد فارس إذ وجدت في تلك الأماكن ملاذاً أميناً لها، فالأسود والضباع والذئاب كانت تسبب فيما مضى خسائر وأضرار كبيرة في القرى، في حين بات ظهورها اليوم نادراً جداً. أما الخنازير والثعالب وبنات آوى فقد بقيت ذات أعداد كبيرة وهي تأتي بشكل مستمر لتتجول حول قرى العشائر التي تعيش تحت الخيام.

وبالنسبة للحيوانات الأليفة فهي كثيرة جداً في الولاية، إذ يوجد فيها على وجه الخصوص أفضل الخيول العربية الأصيلة المشهورة بحسن هيئتها، وأخرى من أصول مختلفة فضلاً عن الجمال والثيران والجاموس والبغال والحمير والخراف والماعز والأرانب وأخيراً جميع أنواع الدواجن. كما يوجد في الولاية نوع من أنواع السنجاب يسمى "سنجاب النخيل"، وهو معروف في موسم التمور وأصبح مألوف جداً بين الناس.

ومن المعروف أن أفضل أنواع سلالات الخيول في آسيا وأكثرها نبلاً من حيث نقاء أصولها هي الخيول العربية ثم يأتي بعدها من حيث تميزها الخيول ذات الأصول الفارسية، فالسيركازينية[1] فالتترية فالتركية.

هذا ويأتي الحصان العربي في المرتبة الأولى بسبب تفوقه الأكيد من حيث النوع على غيره من الخيول الأخرى، وهو غالباً ما يكون ذا طول متوسط وجسمه أكثر علواً من طوله، ورأسه جميل بشكل ملفت للنظر وبكل تفاصيله ولكن ما يميز الحصان العربي على وجه الخصوص عينيه الكبيرتين والجميلتين التي من خلالها يستطيع بدو الصحراء أن يميزوا عن بعد سلالته وأصالته.

كذلك يتميز الحصان العربي بخصائص أخرى: فسمعه مرهف جداً، ورقبته منتصبة عالية، وركبتيه دقيقتين، وبالرغم من حسن مظهره إلا انه يقاوم في الرحلات الطويلة أفضل من الخيول ذات الأصول الأخرى، وقد دربت منذ سنوات عمرها

1 السيركازينية: نسبة إلى مدينة سركازين، الاسم القديم لمنطقة تقع شمال القوقاز.(م)

الأول على الهجوم والقتال وهي تصهل بسرور بالغ كلما شعرت أنها في قلب الصحراء، في حين تنقاد إلى المعركة بحيوية ونشاط ملحوظين.

والحصان العربي هو من الجودة بحيث صورته الأساطير العربية في حكايات خيالية كتبها رواة كثيرون، تقول إحداها: " عندما أراد الله أن يخلق الحصان استدعى رياح الجنوب، وقال لها: أريد أن أحرج من جوفك كائن جديد تكثّفي وانسلخي من سيولتك فأطاعت الرياح، حينها أخذ الإله مجموعة من هذا العنصر، بعد أن أصبح مرناً، ونفخ فوقه فولد الحصان ثم قال الإله: أنت ستصبح للإنسان مصدر سعادة وغنىً وسيشتهر بك كل من سيمتلكك ".

ان هذه الخيول الرائعة ملفتة للنظر من خلال حركتها المرنة والرشيقة خصوصاً سرعة جريها حتى لقبت " بعربات الحرب ". ويمكننا أن نذكر هنا خمسة سلالات من الخيول العربية الأصيلة عريقة النسب تتفرع منها العديد من الفروع، وهذه الأنواع الخمس من السلالات هي:(الصقلاوي، المانياجوي، الهدهه، الحمداني، والكيلان).

إن الخيول العربية الأصيلة يمكنها دخول معركة لعدة أيام دون أن تتناول أي نوع من الطعام كما يمكن استخدامها للصيد والحرب معاً وان الشيوخ الذين يمتلكونها لا يتنازلون عنها مقابل أي مبلغ كان، في حين هم يقدمون لها حليب النوق بين وقت وآخر.

ولدى بيع حصان أصيل فقد جرت العادة على إعطاء المشتري شهادة تحتوي شجرة نسبه العربية المسماة "حجة " وهي عبارة عن وثيقة تمليك مصدقة حسب الأصول من قبل شيخ العشيرة التي ولد فيها الحصان.

أما الجمال التي صادفناها في ولاية بغداد تعود إلى سلالتين: الجودي والكوار، حيث أن جمال السلالة الأولى تتحمل كثيراً حرارة الصيف وقساوة برد الشتاء، فهي ذات قابلية عالية على مقاومة تقلبات المناخ.

في حين أن تلك التي من السلالة الثانية هي اقل قوة وصلابة، ففي موسم الحرارة العالية يكون أصحابها مجبرون على إبقائها في أجواء أكثر اعتدالاً.

وأن البدو الذين يعيشون في الصحراء يضعون غالبا جميع ممتلكاتهم في قوافل الجمال معتمدين على جلود تلك الحيوانات في صنع الجزء الأكبر من ملابسهم. كما ان حليبها هو الغذاء الرئيس لهم، ومن الجدير بالذكر أنه بدون الاستعانة بهذه الجمال فإن العديد من العشائر العربية سيكون وضعها صعباً لكي تستمر في حياتها البدوية.

وقد فرضت الدولة العثمانية قبل عدة سنوات ضريبة سنوية على الجمال مقدارها عشرة قروش على الرأس الواحد (ما يعادل 3.75 فرنك فرنسي) وقد استثنيت في حينه الجمال التي تقدم خدمة مقابل ثمن أي المستخدمة كقوافل للتنقل.

كما أن جميع الجمال التي تذبح في المدينة، من اجل الحصول على لحومها تخضع إلى قانون ذبح المواشي كما هو شأن بقية الماشية التي تستخدم لحومها للاستهلاك المحلي.

وفيما يتعلق بالجمال وحيدة السنام التي تقوم بخدمة البريد بين بغداد ودمشق عبر الطريق الصحراوي والمعروفة باسم "هجين" أو "دلول"، فهي تختلف عن الجمال الأخرى بامتلاكها سنام واحد في حين أن للجمل سنامين، ولعل أفضل الجمال وحيدة السنام تلك التي تأتي من بلاد نجد الغربية وان أفضلها وأكثرها قيمة تعود إلى سلالة تدعى "النعمانية".

وفيما عدا السلالتين التي أشرنا إليهما أعلاه توجد سلالة ثالثة تدعى "المدرب" ولدت من تهجين السلالتين الأوليتين.

وكما هو معروف، فان الجمل زاهد جداً إذ باستطاعته البقاء ستة أيام دون شراب أو طعام. وحيثما يظهر لدى العرب جمل عنيد فإنهم يثقبون أنفه ويربطون فيه

حبل من صوف أو جلد حينها ينقاد الجمل بسهولة تامة، وهم يطلقون اسم "مخزوم" على الجمل العنيد الذي هو أيضاً مثقوب الأنف.

وبشأن الجاموس فإنه يربى عادة في مناطق الأهوار(جنوبي شرق العراق) حيث يزرع الرز، وتعمل العشائر العربية المسماة بـ (المعدان) بشكل خاص في تربيته، إذ يمثل موردهم الوحيد، ويعيش هؤلاء تحت أكواخ صغيرة مبنية على طبقات من البردي في قلب المستنقعات المائية.

ومن الجدير بالذكر أن الجاموس يحتاج إلى عناية كبيرة، كما انه لا يستخدم في ولاية بغداد للحراثة مطلقاً كما هو الحال في الأناضول أيضاً، علماً أن عدد من تجار هذا الإقليم الأخير حاولوا جلب قسماً منها إلى العراق إلا أنهم فشلوا في ذلك بسبب تميز هذه الحيوانات بعدم مقاومتها للتغيرات المناخية، إذ تظهر عليها علامات الإرهاق بسرعة فائقة في مواسم الحر أو البرد الشديدين.

فعملية تربية الجاموس تحتاج إلى عناية كبيرة بهذه الحيوانات في فصل الشتاء وفصل الصيف على حد سواء، ففي موسم البرد يجبر مربوها على وضعها في سقائف مغلقة بإحكام، فضلاً عن وجوب تدفئتها وذلك بإشعال نار قريبة منها، أما خلال موسم الحر الشديد فان الأمر يتطلب بقاء الجاموس طيلة النهار غاطساً في الماء حتى الرقبة وفي الليل ومن اجل وقايته من لسعات نوع صغير من البعوض، يكون المعدان مرغمين على إشعال نار بواسطة حزم من القش بغية توليد دخان كثيف. ويحدث أن قطعانا من الجاموس تهلك أحياناً بسبب (جوائح حيوانية) والتي من الصعب القضاء عليها.

وبخصوص الأبقار والثيران فإنها تقدم منافع كثيرة جداً إلى سكان ولاية بغداد، تأتي بعد الخراف وهذه الحيوانات هي الأكثر عدداً في هذه الولاية. إن هذه الأخيرة يوجد فيها ثلاثة أنواع في العراق هي: الرستاجوي والاراجوي والجنوبي والأخير هو

الأكثر عدداً، وتتميز هذه الأنواع بقامتها الصغيرة وهي بذلك تختلف عن تلك التي في مصر والشام.

ويتواجد من هذه الحيوانات قطعان كبيرة على ضفاف دجلة والفرات، تعود إلى العرب المزارعين والعري شبه البدو. هذا وتستخدم الثيران والأبقار في عملية الحراثة، كما تستخدم أيضاً لسحب المياه الضرورية لري الأراضي الزراعية، كما أنها تتميز بكونها وديعة جداً، وقد دربت على العودة بمفردها كقوافل من العمل وغالباً ما يعود بها طفل صغير وهو يشدو لها غناءً ممتعاً منغماً، كما يوجهها من وقت لآخر بواسطة عصا يحملها بيده وكأنها عصا القيادة.

وبهدف تشجيع الزراعة وتحسين حالة الفلاحين نوعاً ما فقد استثنت الدولة هذه الحيوانات من الضرائب فيما عدا الإبقاء على الرسم الكمركي الذي يدفع لدى التصدير.

إن العشيرة التي تملك أكبر عدد من قطعان الثيران والأبقار تسمى "بني لام"، حيث تنتشر أماكن إقامتها حول مدينة العمارة وترفد هذه العشيرة تجارة تصدير الثيران إلى مصر تلك التجارة التي تطورت تطوراً كبيراً منذ الاحتلال البريطاني للعراق عام 1914م.

أما الحمير فكما هو شأنها في بقية ولايات الدولة تتميز بالوداعة والمثابرة وشدة الطاعة وهي تستخدم بكثرة في ولاية بغداد، إذ يعرف منها نوعان متميزان جداً: الأول يأتي من نجد وهو نوع من الحمير البيضاء، بعضاً منه يعّد نادراً جداً وذلك من خلال تميزها بسرعة الجري، إذ أن ثمنها يوازي تقريباً ثمن الخيول ويكثر هذا النوع بشكل خاص في مدن بغداد، والبصرة والحلة لاسيما في سامراء كذلك في ضواحي سنجق الديوانية.

وبواسطة هذه الحيوانات يقطع هؤلاء العرب البواسل، الصحراء العربية الشاسعة من طرف لآخر. أما النوع الثاني فإنه يتميز بألوانه الأسود والبني، إذ

نصادف عدداً من هذه الحمير لدى العشائر العربية المهتمة بالزراعة وتتصف بصغر بنيتها حيث لا يمكن مقارنتها بغيرها من الحمير الموجودة في ولايات أخرى ويستخدمها العرب في نقل المياه بواسطة قرابات عندما تكون مساكنهم على مسافة بعيدة عن الأنهار ومصادر المياه الأخرى.

أما في حالة عدم وجود حصان أو بقرة فإنهم يستخدمون الحمير لحرث الأرض في القرى والمناطق الزراعية، في حين تستخدم في المدن لنقل وتوزيع المياه بواسطة قرابات من جلد الخروف أو بواسطة جرار الماء، كذلك تستخدم هذه الحمير كواسطة ركوب لأغراض التنقل، لذا فقد تجاوزت أسعارها أحياناً تلك التي تدفع مقابل الخيول ! إذ أن بعض الحمير التي تجلب من نجد يصل سعرها أحياناً إلى ثلاثة آلاف قرش (أي ما يعادل 600 فرنك فرنسي).

في حين تعّد البغال نادرة في العراق فهي تأتي من بلاد فارس وكردستان التي تجهزه بنوع يسمى "السلطاني"، يتميز بكونه أكبر حجماً واشد قوة من الأنواع الأخرى المعروفة. هذا وتوجد بشكل خاص لدى العشائر الكردية أعداد كبيرة من البغال الصغيرة التي تربى من أجل بيعها في المدن.

ولا تخضع البغال في ولاية بغداد لأية ضريبة، ولكنها أسوة بالحيوانات الأخرى التي تباع في سوق الماشية، تخضع لرسم يسمى "باج" يدفع عند البيع مباشرة، كما يدفع رسم مقداره خمسمائة قرش (حوالي 115 فرنك فرنسي) عن كل رأس منها تحت رسوم كمركية في حالة التصدير عن طريق البحر.

وفي زمن رؤوف باشا عندما كان حاكماً لبغداد، شكّلت فرقة من الفرسان على البغال سميت "ستارسوار" خصصت تحديداً لتوفير الحماية للقوافل والمسافرين على امتداد طريق حلب، وقد قدمت هذه الفرقة بعد أن توسعت خدمات جليلة للدولة العثمانية.

وبصدد الخراف فإنه يوجد في ولاية بغداد سلالتان منها إحداها تسمى "كرادي" والأخرى تسمى "عرابي"، ومن تزاوج هاتين السلالتين نتجت سلالة ثالثة عرفت تحت اسم "مودرب".

إن الخراف من النوع الأول منشئها وأصلها في المناطق الكردية وهي اكبر حجماً وأكثر قوة من الخراف "العرابية" التي تقسم إلى نوعين "الأواس" و "الشيفال"، وان صوت النوع الأول هو اقل ونعومة من الثانية. هذا وتربى خراف "الأواس" في شمال الولاية قريباً من جبل حمرين، في حين نجد أن "الشيفال" مشتتة قي بقية أرجاء الولاية إذ أن معظمها أصوافه ملونة ولا يوجد منها إلا شيء قليل بيضاء اللون وهي تتميز بأصوافها الناعمة والمفضلة في اغلب أرجاء الولاية.

هذا ويمتلك العرب المقيمون على ضفاف دجلة والفرات لاسيما أولئك الذين لا يختلطون مع سكان مناطق المستنقعات قطعان كبيرة من الخراف التي تشكل ثروتهم الأساسية.

وإن جلود الخراف التي تعد سلعة تصديرية رئيسة إلى أوروبا تقسم إلى قسمين: مدبوغ وغير مدبوغ، أما بالنسبة للأحشاء الداخلية فهي تهيأ وترش بالملح، وتشكل هي الأخرى سلعة أخرى للتصدير ترسل إلى أوروبا والولايات المتحدة.

كذلك فان الزبدة التي تعطيها الشياه بنوعيها "الكرادي" و "العرابي"، فهي متشابهة في نوعيتها إذ أن لها ذات الطعم واللون تقريباً، وفيما عدا الكمية الأساسية الضرورية لاستهلاك السكان المحليون فإن كميات كبيرة من هذه الزبدة ترسل إلى مصر ويصنع أيضاً من حليب هذه الشياه جبنة يستهلكها سكان المدن.

أما الماعز فإن أعدادها قليلة في ولاية بغداد، وهي نوعان: "الجبلي" و "العراقي"، يربى النوع الأول في المناطق الجبلية وهو ذو وبر يتميز بخشونته، في حين يربى "العراقي" في المناطق السهلية وهو أقل قوة من نظيره الأول إلا أن وبرها ناعم جداً،

وعلى العكس فإن الطلب على لحومها أقل من الخراف وذلك بسبب طعمها غير المستساغ.

ويستخدم عرب الصحراء وبر الماعز لصناعة الخيام بلونها الأسود، حيث يعيشون تحتها في حين يستخدم كميات كبيرة من وبر الماعز في داخل الولاية في صنع الخيام والحبال والأحزمة الكتانية فضلاً عن ذلك فقد أصبح جلد الماعز منذ عدة سنوات سلعة تصديرية إلى الخارج.

14- الطيور

ولدى الحديث عن الطيور فتوجد أنواع مختلفة منها في العراق العديد منها مهاجرة، إذ بعد انقضاء فصل الشتاء في الولاية تبدأ بالاختفاء حتى حلول فصل الربيع وتلك التي تأتي بعدها تختفي حتى اقتراب موسم البرد، كما أن هنالك أنواعاً عديدة من الحمام أكثرها تفضيلاً يسمى "تاباك" وترافق هذه الأنواع المسافرة من الحمام منذ زمن بعيد القوافل لدى مسيرها وهي تشغل وظيفة "ساعي بريد" إذ كانت تطلق من دمشق لتصل مباشرة إلى بغداد معلنة وصول قافلة تستغرق رحلتها ثلاثة أو أربعة أشهر لكي تعبر الصحراء.

ولوقت قريب كرّس القنصل البريطاني في بغداد نفسه للقيام ببعض التجارب، فقد أودع عدد من تلك الطيور المسافرة إلى قوارب الشركة البريطانية التي تؤدي خدماتها بين بغداد والبصرة عبر نهر دجلة، وبعد أن أخضعت تلك الطيور لعدة تجارب أطلقت من عدة مسافات مختلفة تتفاوت في بعدها عن بغداد، في حين وصلت كل منها إلى القنصلية مباشرة حاملة بطاقة كان قائد الباخرة قد ثبتها بعناية بين أقدام الطيور وهي تشير إلى المكان الذي أطلقت منه ووقت المغادرة.

وفي أعقاب عدد معين من الرحلات قطعت هذه الطيور في عدة ساعات المسافات التي تقطعها البواخر في عدة أيام وبكلمة موجزة يمكن القول أن التجارب التي أجراها القنصل توجت بنجاح تام.

وبالنسبة إلى نوعيات الطيور الأليفة فهي عديدة منها "المسكي" و "العنبر" و "الآجي" وغيرها، في حين توجد في الولاية أعدادا كبيرة من الطيور غير الأليفة تسمى "طوراني"، وتسكن هذه الطيور عادة منارات جوامع بغداد، ويوجد عدد كبير منها في الجامع القديم المتداعي والمشيد قديماً من قبل الخليفة المستعصم بالله في عام 648 هـ (1261 م) الذي يقع في منطقة (سوق الغزل) أي سوق القطن المنسوج.

وفيما يتعلق بموضوع هذه الطيور هنالك في بغداد رواية غريبة متداولة تستحق هنا أن نستشهد بها، إذ يحكى في الحقيقة أن الخليفة المستعصم بالله وهو الخليفة السابع والثلاثون في الخلافة العباسية كان قد حضر إلى هذا الجامع في أحد الأيام ليؤدي مناسك العبادات إذ لمح درويشاً فقيراً كان الحراس يمعنون في طرده بقسوة بالغة، في حين أن الخليفة الذي كان يتميز بطباعه الوديعة وكرمه السخي تملكته الشفقة فأمر حراسه بأن يترك آمناً ثم تقدم منه وأعطاه كيساً من النقود في الوقت الذي بدا فيه الشحاذ مضطرب جداً، وهو لا يعرف كيف يعّبر عن شكره لسيده ولكي يفصح عن امتنانه فقد اتجه إلى قفص كان يمسكه بين يديه وقد حبس فيه حمامتان من نوع يسمى "الورشان"، وهو يتوسل إلى الخليفة أن يقبله، وبعد أن قبل المستعصم الهدية فتح القفص أطلق الحمامتين اللتين كانتا فيه واهباً لهما الحرية وبدلا من أن تطير هذه الطيور بعيداً فقد ذهبت لتسكن منارة الجامع التي لم تغادرها أبداً.

إن هذه الطيور المؤلفة التي تسكن منارة الجامع حالياً وتبعاً للرواية، هي من سلالة تلك الحمامتين اللتين أطلقهما المستعصم يومذاك.

وهنالك أعداد كبيرة من الطيور غير الأليفة التي نشاهدها بكثرة في ولاية بغداد منها: الحجل، والدراج وعصفور التين والترغلة والدويري واللقلق والهدهد والغراب

ويوجد كذلك الشحرور والعندليب المسمى "بلبل" والذي يوضع في قفص للاستمتاع بصوته الشجي، والصقور هي كذلك كثيرة في هذه الولاية حيث يعكف بعض الميسورين من الأهالي ولغرض الاستمتاع بالصيد على تربيتها لغرض أن تقتنص الحباري والغزلان.

ومن بين الطيور ذات الأصول الأجنبية لا يوجد سوى الطاووس والببغاء اللذان باستطاعتهما مقاومة حرارة الجو في الولاية، في حين حاول الناس هنا عبثاً تربية طيور الكناري إلا أنهم فشلوا في ذلك.

وبالنسبة للطيور الداجنة فيوجد منها الوز والبط والديك الرومي وأنواع أخرى مختلفة من الدجاج المسمى "الهراتي" نسبةً إلى "هرات" و "الأرجوي"، كما تتم تربية أنواع من الطيور السمينة وهي بديعة جداً، لاسيما في مناطق المستنقعات حيث يزرع الرز، إذ تربى أنواعه الأكثر شهرة في مدينتي العمارة وسدة الهندية على وجه التحديد يبلغ طول البعض منها قامة الديّكة الرومية وهنالك في بغداد عدد كبير من الأهالي يهتمون بتربية الديّكة أيضاً حيث يقومون بتدريبها على التصارع فيما بينها.

ويجب أن لا ننسى أيضاً "البجع" الذي يسميه العرب "نعج الماء" بريشه الطويل الأبيض، فضلاً عن مالك الحزين الذي يعّد ريشه سلعة تصديرية. وأخيراً ففي مناطق الأهوار يوجد طير يسميه العرب "الشهيبي"، وهو نوع من البلشون الذي يستخدم شحمه تبعاً لقولهم كعلاج ناجع ضد الروماتزم.

15- الأسماك

يحتوي نهري دجلة والفرات أنواعاً مختلفة من الأسماك لها طعم لذيذ في المأكل، من بينها نوع من السمك الكبير يعرف تحت اسم "بز" ويسميه كثير من الرحالة سمك "التوبي" يصل وزن الواحدة منها مابين أربعين إلى ستين كيلوغراماً، ومن الملاحظ أن هذا النوع من السمك في الغالب ذو طعم غير مستساغ. أما الأنواع الجيدة المستخدمة للاستهلاك فهي: الشبوط، البني، النوباشي، وجميعها تتميز بطعمها اللذيذ.

كما يحتوي دجلة والفرات أيضا على نوع من السمك خطراً جداً تجاه السباحين فيهما، يسميه السكان هنا "الكوسج" وهو نوع من القرش الصغير الذي نصادفه بأعدادٍ كبيرةٍ جداً على الأغلب ليس بعيداً عن المدن والقرى، إذ يتواجد على مسافة نحو ثمانمائة كيلومتراً عن البحر، وتسير هذه الأسماك مع مجرى النهر قريباً من المدن لكي تشبع نهمها وغالباً ما يقع السباحون غير الحذرون ضحايا لهذه الكواسج.

أما القندس المسمى "كلب الماء" فهو يسكن مناطق الأهوار ويدخل معه الأهالي في معارك ضارية من اجل الحصول على جلده الذي يمثل سلعة مربحة جداً في التصدير.

أما بشأن آلات الصيد المستخدمة هنا فإن الصيادون العراقيون يستخدمون نباتاً يصنفه علماء الطبيعيات تحت اسم (تيروسبا)، ويسميه العرب "زهر السمك" وهو (سم السمك)، يستخدم في تسميم الأسماك، فهم يقومون بتجفيف النبات وتحويله إلى بودرة حيث تنثر على سطح الماء وبعد ساعتين من هذه العملية تطفو على سطح الماء أسماك ميتة بسبب السم، إذ يعمل الصيادون على جمعها، ومن الملفت للنظر أن هذه البودرة تقتل الأسماك دون أن تعود بأضرار صحية على الإنسان المستهلك.

وعلى ضفاف دجلة والفرات نصادف أيضاً عدد كبير من السلاحف منها ذات أحجام كبيرة جداً تصيدها العشائر الساكنة حول الموصل وتعمل منها صحوناً ذات طعم طيب وشهي.

أما الضفادع فهي متواجدة بالآلاف قريبا من الأهوار في حين نصادف منها القليل على ضفاف الأنهار، ومن الملاحظ أن العرب يراعون هذه الضفادع التي – تبعاً لهم – تنشد في المساء الحمد والثناء للخالق.[1] وبالنسبة للروبيان فهو نادر جداً في العراق نصادف منه كميات كبيرة على ضفاف شط العرب في البصرة.

---

1 يبدو أن الكاتب ينقل ما يسمعه من العوام من قصص خيالية وروايات أسطورية قديمة.(م)

16- الحشرات

أنواع الحشرات في ولاية بغداد كثيرة جداً مما يجعل من العسير علينا أن نحصيها هنا بسهولة، في حين أن ذلك من الممكن أن يكون موضوعاً جديراً بالدراسة لدى علماء الطبيعيات.

وبالنسبة للذباب والبعوض والحشرات الصغيرة فإنها تملأ الجو في كل مكان، ولحسن الحظ فإن البق غير موجود في هذه البلدة، في حين ينتقل القليل منه في أمتعة عدد من المسافرين القادمين من ولايات الإمبراطورية الأخرى، إلا أنها تهلك مع قدوم أيام الحر الأولى وعلى العكس من ذلك فان 'البرغوث' يبدأ منذ الأيام الأولى لشهر آذار/ مارس وحتى شهر مايس / أيار بتعذيب السكان عامة وسكان مدينة الكفل[1] الصغيرة بشكل خاص والعزير[2] التي تضم قبر النبي العزيز، وتقع أولى هاتين المدينتين قريبا من مدينة الحلة والثانية قريباً من القرنة، وخاصةً في موسم زيارة اليهود لهذه المناطق المقدسة بالنسبة لهم وذلك من اجل أداء شعائرهم الدينية فإن البرغوث يجعل أية فرصة للنوم تبدو مستحيلة.

ويوجد بالقرب من الأهوار نوع من البعوض الذي في فترة معينة من السنة يحرم الناس من الراحة والحيوانات أيضاً لاسيما الخيول والجاموس. وفي الصيف خاصة في أيام الحر القائض وحينما لا توجد رياح فإن هذه الحشرات تغزو الجو في حين توجد بأعداد هائلة في مناطق المستنقعات بحيث لا يستطيع المرء أن يفتح فمه دون أن يبتلع بعضاً منها، ولدى تناول الطعام يكون مجبراً على أن يحرّك دون توقف مروحة يدوية منعاً من سقوطها في الطعام، وشيوخ العشائر الذين يقيمون قريباً من الأهوار والموظفين الكبار في الحكومة الذين يجدون أنفسهم أحياناً في موقف لا يحسدون عليه

---

1 الكفل: مدينة صغيرة تابعة إدارياً إلى مدينة الحلة حالياً،يوجد فيها قبر أحد أنبياء اليهود، سميت بإسمه.(م)

2 العزير: قصبة صغيرة تقع بين مدينتي العمارة والبصرة جنوب العراق، تضم قبر نبي الله العزير أحد أنبياء اليهود.(م)

في هذه الأماكن يقومون بتسخير عدد من الرجال يعملون بالمناوبة على قتل الذباب والبعوض بأساليب بدائية يدوية.

أما الجراد فهو لحسن الحظ يظهر بشكلٍ نادر في العراق لكنه حين يأتي فإنه لا يضر بالحقول فحسب كعادته المألوفة مسبباً كثيراً من الخسائر في المحاصيل الزراعية، ولكنه يبقى أيضاً لسنوات عديدة في البلاد عندئذ تضطر الحكومة باللجوء إلى شتى أنواع التدابير من اجل تخليص البلاد من هذه الآفة، كذلك تظهر في فصل الصيف أنواع من العقارب وبأعداد كبيرة جداً لاسيما في المنازل، يكون حينها الأهالي مجبرون على اتخاذ تدابير احترازية للوقاية من هذه الحشرات التي تتصف بلدغتها المؤلمة جداً ويوجد أيضاً في مدينة مندلي[1] التابعة لولاية بغداد نوع من العقرب تكون لدغته مميتة يسمونه في البلدة "جيرار".

أما الفئران والجرذان فإنها أيضاً كثيرة جداً في جميع أنحاء العراق، في حين أن الأفاعي ولحسن الحظ نادرة جداً، وعلى العكس من ذلك فإن الثعابين تكثر في القرى بشكل كبير مقارنةً بالمدن ولكن أغلبها ليست سامة.

17- مناجم الفحم

إن أراضي ولاية بغداد بقيت غير مدروسة بشكل سليم في الجانب المتعلق بالبحث عن المواد المعدنية، إذ أن مناجم المعادن المكتشفة حتى الآن غير كافية، فيما عدا مناجم الفحم الحجري والبترول التي هي بحسب تأكيد عدد من الخبراء ذات أهمية كبيرة جداً.

وفي واقع الأمر يوجد قريباً من مندلي مناجم للفحم الحجري غنية بنوعياتها وكمياتها مثلما هي غنية بالنفط والزفت المعدني والقطران، فضلاً عن ذلك يوجد عدد كبير من مقالع الأحجار الجبسية والكلسية التي تستخدم في البناء، في حين أن

---

1 مندلي: مدينة قريبة من الحدود الإيرانية، تقع إلى الغرب من محافظة ديالى وتتبع لها إدارياً في الوقت الحالي.(م)

الجبال التي تحتوي على الفحم نجدها بعيدة للغاية عن نهر دجلة، هذا ومنذ وقت بعيد كانت قد أرسلت إلى أوروبا عينات من الفحم ومن النفط، حيث أعطت التحليلات في حينه نتائج ممتازة بشأنها.

والنفط الذي تستخرجه الدولة من هذه الأماكن يستهلك في الولاية بحالته الخام وعلى الرغم من رائحته الكريهة فان الأهالي مضطرون على استخدامه، لاسيما وان أسعار البترول الأجنبي مرتفعة جداً علماً أن العوائد السنوية لاستغلال هذه المادة ضئيل للغاية في تلك الفترة.

وفي زمن مدحت باشا أيضاً أرسلت عينات منها إلى لندن لغرض تحليلها، وكان التقرير إيجابياً في حين باشرت الحكومة بإنشاء معمل لتكرير النفط في بعقوبة الذي يستخرج من الأراضي القريبة من مندلي، وقد أنفقت الحكومة مبالغ كبيرة من اجل شراء ونصب المراجل والمكائن القادمة من أوروبا لغرض الحصول على بترول صافي مثل نظيره الذي يصل من الخارج، إلا أن المعمل أغلق حال مغادرة مدحت باشا الولاية بعدها أخذ الصدأ يعمل على إتلافه وتآكله و استمر ذلك لفترة طويلة.

إن استثمار مصادر النفط كانت توضع في سابقاً تحت المزايدة السنوية وقد قدم عدد من الأهالي والأجانب طلبات عديدة للحصول عليها، وإن امتياز تصدير هذه الخامات قد عجل في أن تكون أعمال التنقيبات ذات أهمية كبيرة إذ توسعت مشاريع الاستثمار مما وفر للحكومة عوائد مالية كبيرة. وعلى الرغم من أن أياً من طلبات الاستثمار لم تلقى قبولاً في الأيام الأولى لبدء الاستثمارات إلا أن موافقة جلالة السلطان حصلت فيما بعد على منح امتياز استغلال هذه المناجم ومصادر البترول إذ تضمنتها قائمة التخصيصات الحكومية الصادرة في حينه وقد أعلنت الحكومة انه في حالة التوسع في عمليات الاستثمار كما هو عليه الحال في الولايات المتحدة وروسيا سيجهز حينها البترول الضروري ليس فقط للاستهلاك المحلي في تركيا بل أيضاً للتصدير إلى الهند.[1]

---

1 منذ عدة سنوات اكتشفت شركة إنكليزية مناجم البترول في المحمرة.

19- مناجم الملح

هنالك العديد من المناجم الملحية في ولاية بغداد إذ يّدر استثمارها عوائد كبيرة لخزينة تعهدات الدولة، ولعل أكثرها أهمية تلك التي في مدن مندلي والعزيزية والسماوة وهيت وفي ولاية بغداد فضلاً عن لمنجم الملحي الكبير والمسمى "حمدان" في سنجق البصرة.

وأخيراً هناك أماكن معينة على شواطئ دجلة والفرات يستخرج منها الصلصال الذي يستخدم في صناعة أنواع من الآجر البديع الشكل فضلاً عن العديد من الخزفيات المطلوبة من قبل سكان الولايات الأخرى في الإمبراطورية العثمانية، وهذه الصناعة ينتظرها مستقبل مشرق في حالة استخدام المكائن الأوروبية لغرض صناعة الفخاريات وغيرها من المنتجات المماثلة.

ثالثا: ولاية بغداد والتجارة الفرنسية مع سوريا

إن التطرق إلى هذا الموضوع قد يبدو للوهلة الأولى بعيداً عن دراستنا هذه المتعلقة بولاية بغداد، في حين رأينا في هذه الأثناء أن بغداد يجب أن لا تدرس لوحدها بل من خلال جيرانها التي ترتبط معهم بروابط ذات طابع تجاري على الأغلب، وفيما يتعلق بمستقبل النشاط الصناعي والتجاري في هذه المناطق فإنه منذ أن شرعنا في هذه الدراسة والأحداث تسير سيراً حسناً، فقد توسع إطار الحرب وتبدل مركز الثقل فيها في وقت طرحت فيه المسألة السورية نفسها من جديد مع حدة أكثر من أي وقت مضى.

إن استمرار مد سكة حديد بغداد في غمرة الحرب يبدو معرضاً لخطر محدق تماماً، في حين نجد أن أبواب المخزن الوحيد حيث يستطيع الأتراك والألمان نقل جميع ما يحتاجون إليه بحرية تامة بدأ ينغلق شيئاً فشيئاً وبصورة أكثر من ذي قبل.

وقبل افتتاح قناة السويس كانت تجارة الصادرات والواردات تمر جميعها عبر سوريا ولاسيما دمشق وحلب باتجاه الموصل ثم بغداد لتصل بلاد فارس.

ومنذ ذاك الحين أختير طريق آخر يتطلب عبوره بواسطة سفن كبيرة تسلك مياه البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي وشط العرب حتى تصل إلى البصرة، ثم تستكمل الرحلة فيما بعد بواسطة قوارب نهرية عبر شط العرب في جزءه الأعلى ومن ثم نهر دجلة حتى تصل إلى بغداد.

وقد فقدت سوريا على هذا النحو التجارة الهائلة من البضائع التي كانت ترسل من بيروت إلى دمشق وحلب لتنقل فيما بعد بواسطة قوافل إلى داخل تركيا الآسيوية وبلاد فارس.

إن موقفنا التجاري مع سوريا هو ذو شن كبير مما يتطلب منا ضرورة عرضه هنا، ويكفينا أن نذكّر فقط بمقولة لامارتين عن سوريا:((هذه المستعمرة الرائعة هي التي تنتظرها فرنسا))، وعلى وجه الخصوص كونها بلد منتج للحرير الذي يرسل منه إلى ليون سنوياً (500.000 الف كيلو) تقدر قيمته في السنة الاعتيادية حوالي(25 مليون فرنك فرنسي).

وهذه الأرقام التي نوردها هنا هي تبعاً لما أعلنه الرئيس البارز لغرفة تجارة ليون السيد كوانية (Coignet)، وفيما يتعلق بصادراتنا فهي تشغل المرتبة الثانية بعد بريطانيا العظمى، إذ تصل الأرقام الإجمالية للمقايضات إلى ما يقارب (23 مليون فرنك فرنسي) وهذا يجعلنا في مرتبة سابقة على النمسا –المجر (9.600.000 مليون فرنك) والمانيا (8.300.000 مليون فرنك)، ولكن تشغل فرنسا المرتبة الأولى كعميل تجاري أوروبي مع سوريا، وتعّد مرسيليا وليون السوقين الوحيدتين لشراء الحرير من لبنان تقريباً، فضلاً عن أن مشترياتنا من الفواكه والقطن والأصواف والجلود، الخ... فمن الممكن لها أن تزداد أيضاً في مقابل التبادل التجاري الضروري من جانبنا في تزويدها بمادة السكر (على سبيل المثال) ومنتوجاتنا الأخرى المصنعة بشكل عام.

ولسوء الحظ فإننا لا نستطيع أن نصف الوضع التجاري المزدهر نوعاً ما في ولاية بغداد بشكل دقيق حيث تشغل فيه فرنسا المرتبة السادسة من جهة تجارة الواردات (5.8٪)، وكرقم إجمالي المرتبة الثالثة (13.46٪) في تجارة الصادرات بعد بريطانيا وتركيا.

1- الواردات

لقد بلغت الواردات خلال سنة 1913، (74.210.000 فرنك فرنسي) تتوزع كالآتي:

بريطانيا	ـــــــ	33.950.000	فرنك فرنسي
الهند	ـــــ	9.600.000	فرنك فرنسي
ألمانيا	(قفزت من المرتبة السادسة إلى المرتبة الثالثة منذ 1910)	7.150.000	فرنك فرنسي
النمسا	ـــــ	6.150.000	فرنك فرنسي
بلجيكا	ـــــ	4.500.000	فرنك فرنسي
تركيا (والخليج العربي)	ـــــ	2.450.000	فرنك فرنسي
روسيا	ـــــ	1.480.000	فرنك فرنسي
بلاد فارس	ـــــ	1.100.000	فرنك فرنسي
أمريكا اللاتينية	ـــــ	1.000,000	فرنك فرنسي
النرويج	ـــــ	750.000,000	فرنك فرنسي
سويسرا	ـــــ	540.000,000	فرنك فرنسي
السويد	ـــــ	510.000,000	فرنك فرنسي
إيطاليا	ـــــ	420.000,000	فرنك فرنسي
الولايات المتحدة	ـــــ	220.000,000	فرنك فرنسي
الشرق الأقصى	ـــــ	155.000,000	فرنك فرنسي
المجموع		47.210.000	فرنك فرنسي

أما الواردات التي تشترك فيها فرنسا فهي كالآتي:

* السكر:

بلجيكا	—	2.400.000	فرنك فرنسي
فرنسا	—	1.750.000	فرنك فرنسي
النمسا	—	1.600.000	فرنك فرنسي
ألمانيا	—	800.000	فرنك فرنسي
الهند	—	450.000	فرنك فرنسي

وقد جاءت فرنسا بالمرتبة الأولى حتى عام 1909، في حين تجاوزتها بلجيكا وذلك بفضل شركة بيرج – بوتمان وشركائهم المؤسسة في بغداد وهي ألمانية عندما كان السيد بوتمان قنصل بلجيكا في المدينة.

* أدوية منتجات كيمائية، وصيدلانية:

فرنسا	—	450.000	فرنك فرنسي
ألمانيا	—	500.000	فرنك فرنسي
بريطانيا	—	30.000	فرنك فرنسي

وقد شغلت فرنسا المرتبة الأولى بـ 550.000 فرنك فرنسي مع نهاية العام 1909م.

* المنسوجات القطنية:

بلغت الواردات 30.000,000 مليون فرنك فرنسي مقسمة كما يلي:

بريطانيا	----	29.200.000	فرنك فرنسي
فرنسا	----	500.000	فرنك فرنسي
بلجيكا	----	160.000	فرنك فرنسي
إيطاليا	----	60.000	فرنك فرنسي
ألمانيا	----	40.000	فرنك فرنسي
النمسا	----	30.000	فرنك فرنسي

*** الجلود :**

إن أكثر من نصف الواردات البالغة 500.000 فرنك فرنسي كإجمالي تجهز من قبل فرنسا.

فرنسا	----	250.000	فرنك فرنسي
ألمانيا	----	150.000	فرنك فرنسي
النمسا	----	65.000	فرنك فرنسي
بريطانيا والهند	----	35.000	فرنك فرنسي

*** منسوجات حريرية:**

الواردات 500.000 فرنك فرنسي

فرنسا	----	350.000	فرنك فرنسي
اليابان	----	150.000	فرنك فرنسي
إيطاليا	---	50.000	فرنك فرنسي
سويسرا	----	50.000	فرنك فرنسي

*** الملابس المنسوجة** – الواردات 141.000 فرنك فرنسي

فرنسا	----	35.000	فرنك فرنسي
ألمانيا	----	50.000	فرنك فرنسي
النمسا	----	30.000	فرنك فرنسي
إيطاليا	----	18.000	فرنك فرنسي
بريطانيا	----	8.000	فرنك فرنسي

*** مؤونة ومشروبات– بلغت الواردات عام 1913 (5,710,000 فرنك فرنسي)**

فرنسا ـــ ـــ ـــ ـــ 250,000 فرنك فرنسي

بريطانيا ـــ ـــ ـــ ـــ 300,000 فرنك فرنسي

الهند ـــ ـــ ـــ ـــ 2 ،700,000 فرنك فرنسي

النمسا ـــ ـــ ـــ ـــ 2 0,000 فرنك فرنسي

روسيا ـــ ـــ ـــ ـــ 50,000 فرنك فرنسي

ألمانيا ـــ ـــ (1200,000,000فرنك عام 1910) 500,000 ، 1 فرنك فرنسي

الولايات المتحدة ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ 1,005,000 فرنك فرنسي

إيطاليا ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ 55,000 فرنك فرنسي

بلجيكا ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ 45,000 فرنك فرنسي

تركيا ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ 870,000 فرنك فرنسي

وقد أوضحت البلدان المجاورة للهند أن الأهم من الواردات التي تصل إلى هذه المستعمرة الإنكليزية هي من المواد الغذائية، ذلك أن الاستلام البضائع يجري هتا بشكل أكثر سرعة وأقل كلفة من تلك التي تمر عبر أوربا، في حين تمتلك فرنسا الأولوية في بيع المشروبات بمختلف أنواعها.

*أصواف ، أغطية ، أقمشة صوفية– الواردات 2,00,00 فرنك فرنسي.

فرنسا ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ 370,000 فرنك فرنسي

النمسا ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ 915,000 فرنك فرنسي

بريطانيا ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ 270,000 فرنك فرنسي

الهند ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ 40,000 فرنك فرنسي

ألمانيا ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ 215,000 فرنك فرنسي

بلجيكا ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ 95,000 فرنك فرنسي

إيطاليا ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ 65,000 فرنك فرنسي

سويسرا ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ 30,000 فرنك فرنسي

* **غزول قطنية وأخرى** – حصتنا منها ليست سوى 15.000 فرنك فرنسي من رقم إجمالي قدره 1600.000.000 فرنك فرنسي ، منها 85٪ تعود إلى الهند حيث أن مصانع الغزل نادرة جدا .

* **مكائن مختلفة** – ارتفعت الواردات في عام 1913 إلى 2.775.000 فرنك فرنسي مقسمة كالآتي:

بريطانيا	—	**950.000**	**فرنك فرنسي**
ألمانيا	**(200.000 عام 1910)**	**1.500.000**	**فرنك فرنسي**
الهند	—	**150,000**	**فرنك فرنسي**
فرنسا	—	**80.000**	**فرنك فرنسي**
بلجيكا	—	**40.000**	**فرنك فرنسي**
الولايات المتحدة	—	**40.000**	**فرنك فرنسي**
النمسا	—	**15.000**	**فرنك فرنسي**

إن مضخات الدفع كثر الطلب عليها بأعداد كبيرة جداً في بلاد النهرين في الآونة الأخيرة ، فقد انتشر استخدامها يوماً بعد آخر منذ أن صدر قانون حديث أعطي بموجبه الأهالي وبناء على طلبهم مساحات واسعة من الأراضي الزراعية مقابل ضريبة مقدارها 5٪ من قيمة المحاصيل.

وبالرغم من النسبة التي حددتها السلطة للإرساليات التي قام بها صناعيين فرنسيين إلا أن البيوت الصناعية البريطانية استمرت في امتلاك نسبة فائدة محددة إذ كانت أسعارها اقل من ستة إلى ثمانية بالمئة من المبيعات الفرنسية.

لقد كانت أسعار المحركات ذات الضخ الطارد مركزيا وقطع الغيار كالآتي:

3.400 فرنك فرنسي	للمحركات 6 HP
4.100 فرنك فرنسي	للمحركات 8 HP
4.500 فرنك فرنسي	للمحركات 10 HP

أشير هنا أيضاً إلى منافذ تسويقية تمتلكها هذه البلدة بشأن المكائن الزراعية ومصانع الغزل ومعامل الفخار والأنسجة الحريرية الميكانيكية، وغيرها.

* **دانتيل وتول** [1] - حصة فرنسا هي (25.000 فرنك فرنسي) من مجموع إجمالي قدره (100.000 فرنك فرنسي) ومنافسيها في هذا المجال هم : بريطانيا(40.000 فرنك فرنسي)، وإيطاليا (25.000 فرنك فرنسي).

* **أصباغ** – أصباغ على شكل عجينة وبودرة، أنيلين (وهو سائل زيتي سام يستعمل في صناعة العطور والأصباغ)، منتجات ملونة أخرى، شب، خشب النقم[2]، مجموعها (868.000 فرنك فرنسي) :

فرنسا	—	11.000	فرنك فرنسي
بريطانيا	—	36.000	فرنك فرنسي
الهند	—	580.000	فرنك فرنسي
بلجيكا	—	11.000	فرنك فرنسي
ألمانيا	—	200.000	فرنك فرنسي
النمسا	—	10.000	فرنك فرنسي
سويسرا	—	20.000	فرنك فرنسي

* **ورق** – الواردات (900.000 فرنك فرنسي) :

النمسا	—	670.000	فرنك فرنسي
المانيا	—	140.000	فرنك فرنسي
بلجيكا	—	3.000	فرنك فرنسي
إيطاليا	—	60.000	فرنك فرنسي
فرنسا	—	10.000	فرنك فرنسي

---

1 تول (tulles) : قماش رقيق شفاف من خيوط القطن أو الصوف منسوب إلى قرية تول بفرنسا. (م)

2 النقم : نوع من شجر من القرنيات الفراشية. (م)

* **أغطية** – الواردات (70.000 فرنك فرنسي) :

فرنسا	—	20.000	فرنك فرنسي
ألمانيا	—	20.000	فرنك فرنسي
بريطانيا	—	15.000	فرنك فرنسي
بلجيكا	—	10.000	فرنك فرنسي
إيطاليا	—	5.000	فرنك فرنسي

* **زجاجيات**، وخزف صيني، وأواني صينية – الواردات (360.000 فرنك فرنسي):

فرنسا	—	15.000	فرنك فرنسي
بلجيكا	—	110.000	فرنك فرنسي
روسيا	—	45.000	فرنك فرنسي
النمسا	—	35.000	فرنك فرنسي
ألمانيا	—	15.000	فرنك فرنسي
الهند	—	90.000	فرنك فرنسي
تركيا	—	50.000	فرنك فرنسي

* **الصابون** – الواردات 300.000 فرنك فرنسي، منها 25.000 فرنك فرنسي فقط لفرنسا، تستورد منها تركيا 200.000 فرنك فرنسي.

* **الملابس** – الواردات 120.000 فرنك فرنسي، منها 25.000 فرنك فرنسي لفرنسا.

* **أقمشة** – الواردات 250.000 فرنك فرنسي، منها 2.000 فرنك فرنسي فقط لفرنسا.

* **أسلحة** – 240.000 فرنك فرنسي، منها 50.000 فرنك فرنسي لفرنسا.

* **عطور** – 50.000 فرنك فرنسي، منها 10.000 فرنك فرنسي لفرنسا.

* **مجوهرات** – 60.000 فرنك فرنسي، منها 7.000 فرنك فرنسي لفرنسا.

* **كتب مختلفة**، أدوات مدرسية، اشتراكات في الصحف والمجلات – 60,000 فرنك فرنسي، منها 30.000 فرنك فرنسي لفرنسا.

* **أجهزة تصوير** – 30.000 فرنك فرنسي،منها 3.000 فرنك فرنسي لفرنسا.

* **ورق لعب** – 13.000 فرنك فرنسي، منها 9.000 فرنك فرنسي لفرنسا.

* **خردوات** – 1.300.000 فرنك فرنسي، يقسم على الشكل التالي :

ألمانيا	—	250.000	فرنك فرنسي
النمسا	—	460.000	فرنك فرنسي
بلجيكا	—	330.000	فرنك فرنسي
فرنسا	—	20.000	فرنك فرنسي
بريطانيا	—	40.000	فرنك فرنسي
الهند	—	100.000	فرنك فرنسي
تركيا	—	100.000	فرنك فرنسي

* **حرير خام من مختلف الأنواع وخيوط حرير من جميع الألوان** –

الواردات 1.000,000 فرنك فرنسي :

بلاد فارس	—	500.000	فرنك فرنسي
تركيا	—	400.000	فرنك فرنسي
الهند	—	60.000	فرنك فرنسي
فرنسا	—	40.000	فرنك فرنسي

* **إسمنت** – **500.000** فرنك فرنسي، منها 3.000 فرنك فرنسي لفرنسا، مقابل 77.000 فرنك فرنسي لبريطانيا و 420.000 فرنك فرنسي لألمانيا (لا شيء في سنة 1910)

* **كحوليات، دهون نباتية، زيوت نباتية** – 20.000 فرنك فرنسي منها 8.000 فرنك فرنسي لفرنسا.

* **معادن مختلفة** – نحاس احمر واصفر، صفائح مختلفة، مكنديز، رصاص، حديد ابيض، ميشور[1]، زئبق، زنك، حديد وفولاذ مختلف الأنواع.

وقد ارتفعت الواردات في عام 1913 إلى ستة ملايين فرنك فرنسي، مقسمة كالآتي :

فرنسا	—	350.000	فرنك فرنسي
بريطانيا	—	1.200.000	فرنك فرنسي
الهند	—	580.000	فرنك فرنسي
ألمانيا	(440.000 فرنك فرنسي في عام 1911)	2.940.000	فرنك فرنسي
بلجيكا	—	600.000	فرنك فرنسي
النمسا	—	300.000	فرنك فرنسي
إيطاليا	—	30.000	فرنك فرنسي

إن واردات ألمانيا توسعت فجأة بسبب إنشاء خط سكة حديد بغداد.وهناك واردات رئيسة لم تشترك فيها فرنسا :

* **شموع** – كنا نتبوأ المرتبة الثالثة منذ ستة سنوات، إلا أن توقف وارداتنا نهائياً.

* **بترول** – 600.000 فرنك فرنسي مقسمة على الشكل الآتي :

روسيا	—	410.500	فرنك فرنسي
النمسا	—	29.500	فرنك فرنسي
الولايات المتحدة	—	169.000	فرنك فرنسي

* **فحم ارضي** – 1.300.000 فرنك فرنسي لصالح بريطانيا.

* **فحم خشبي** – 250,000 فرنك فرنسي لصالح الهند.

---

[1] الميشور : معدن مركب من التوتيا والنيكل والنحاس، وسمي بإسمي مخترعيه.(م)

* **كبريت** – 550,000 فرنك فرنسي.
* **حبال** – 250,000 فرنك فرنسي.
* **أخشاب** – 3.000,000 فرنك فرنسي، مقسمة كما يلي :

النمسا	—	1.650.000	فرنك فرنسي
النرويج	—	750.000	فرنك فرنسي
روسيا	—	700.000	فرنك فرنسي

* **حقائب فارغة** – الهند، بواقع مليوني فرنك فرنسي.
* **تبوغ** – 720.000 فرنك فرنسي منها 320.000 فرنك فرنسي لتركيا و 400.000 لبلاد فارس.
* **مناديل ووشاحات** – 420,000 فرنك فرنسي لسويسرا، التي تحتكر هذه الصناعة.

* **الصادرات :**

نذكر هنا أرقام الصادرات في عام 1913 مع الحصص الخاصة للبلدان الأجنبية المشتركة فيها وتشمل هذه الصادرات جميع المنتجات المصنعة في ولاية بغداد :

فرنسا، والجزائر وتونس	—	5.000,000	فرنك فرنسي
النمسا و إيطاليا	—	650.000	فرنك فرنسي
بريطانيا	—	11.000.000	فرنك فرنسي
ألمانيا، هولندا، بلجيكا	—	3.800.000	فرنك فرنسي
الهند	—	4.000,000	فرنك فرنسي
تركيا، مصر، الخليج (العربي)	—	5.200.000	فرنك فرنسي
الولايات المتحدة	—	4.500.000	فرنك فرنسي
روسيا	—	900.000	فرنك فرنسي
دول أخرى	—	3.100.000	فرنك فرنسي
إجمالي الصادرات	—	38.150.000	فرنك فرنسي

إن فرنسا، بالنتيجة ستتمكن من تحسين وضعها المالي في ولاية بغداد وسيكفينا في هذا الجانب قيام عدد من وكلائنا التجاريين السواح بزيارات متكررة إلى هذه المناطق[1]، وهم يبيعون مواداً رخيصة الثمن، ويقدمون قروضاً ميسرة.

إن هذه الحاجة المتمثلة بالتفتيش عن أسواق لبيع المنتجات هي مسألة تبحث عنها جميع الدول، لاسيما في هذه الولاية التي حققت فيها نجاحات سابقة.

وختاماً، اسمحوا لنا أن نطلعكم على نص ما كتبناه في سبتمبر/ أيلول 1912 إلى السيد وزير التجارة والصناعة الفرنسي في وقت بوشرت فيها أعمال كبيرة على ضفاف دجلة في قلب مدينة بغداد والتي أتاحت فرصة هامة لتظاهرة هائلة وضخمة.

((إن هذه التظاهرة سيادة الوزير كان لها صداها في أوروبا وقد نقلت مسبقاً من قبل المهتمين بشؤون التجارة، هؤلاء الساهرون بانتباه على التغييرات الاقتصادية التي جلبتها السكك الحديد بشكل عام في البلدان المحرومة من وسائل نقل سهلة كما هو الحال بالنسبة لخط العراق – المنطقة العربية.

يجب علينا أن لا نبق غير مبالين إزاء هذه الحالة الجديدة وإذا كان هذا الجزء من الإمبراطورية العثمانية حتى الآن بقي بعيداً عن اهتماماتنا التجارية، فإنه يحق لي ومن خلال الواجب الذي تفرضه علي وظيفتي أن ألفت انتباه تجارنا وصناعيينا إلى الفوائد الجمة التي سيجنونها لأنفسهم أولاً وللتجارة الفرنسية وتوسيعها ثانياً إذا هم أرادوا أن يضمنوا لأنفسهم منذ الآن أسواقاً لبضائعهم.

إن واقع طرق المواصلات الجديد يضع فرنسا دون شك فرنسا في وضع سيئ فيما يتعلق بالاتفاقيات التجارية مع هذا الجزء من الإمبراطورية العثمانية، لكن بلداً

---

[1] منذ الأول من شهر كانون الثاني /يناير 1913 وحتى الأول من شهر تموز/يوليو 1914، التقيت في بغداد ثلاثة مسافرين فرنسيين هم :

السيدة (ديرونزي)، من مؤسسة بيرميزيل وشركاءه في ليون، والسيد (روبين) ممثل أكبر معامل الأقمشة الصوفية في روبايو الذي اشترى في عام 1914 بمبلغ 1.500.000 فرنك أصوافاً مغسولة أرسلت إلى فرنسا مباشرة، وسيد ثالث لا اذكر اسمه كان قد جاء إلى المدينة ليوفر المشروبات الروحية من جميع الأصناف ولجميع الأذواق.

مثل النمسا مثلاً لا يمتلك مثلنا مصلحة في إبقاء إحدى أبوابه مرتبطاً مع هذه الولاية بواسطة خطوط ملاحة أجنبية.

ولكي نظهر إننا بلد يبحث حقيقة عن أسواق في هذه المنطقة علينا أن نستلهم قواعد تجارية جديدة يمكن تطبيقها في مختلف مسائل التعامل التجاري هنا، حينها سنصل إلى تذليل للصعوبات التي تواجهها حالياً. لقد ألمحنا إلى خط سكة حديد بغداد التي لم يزل التفكير مستمراً في إمكانية إكمالها خلال خمس أو ست سنوات.

إن تأسيس هذه السكة سيحسن دون شك الوضع الاقتصادي للعراق ومنطقة شبه الجزيرة العربية، والتي نأمل من خلالها أن تجد منتجاتنا فيها أسواقا مضمونة إذا ما بذلت تجارتنا الوطنية بدءاً من الآن الجهود اللازمة لكي لا تترك نفسها تتراجع أمام المنافسين الأجانب الأكثر جرأة وإقداماً.

إن ما نكتبه الآن (في عام 1912)، من الممكن أن يطّبق عندما يستقر وضع العالم في شكله الطبيعي، ومن أجل إمكانية تحقيق هذه المفاهيم ولغرض ضمان التوسع التجاري في هذه المناطق، هنالك وسيلة هي: إنشاء ممثليات تجارية في البصرة وبغداد والموصل تعمل بشكلٍ جدي وعملي في ما يتعلق بالإرساليات التجارية القادمة من فرنسا والتي فيما عدا أعمالها الخاصة بها فإنها ستكون أيضا الممثليات المشرفة على عدد من الشركات الفرنسية العاملة هنا.

الفصل الثالث

" سلسلة رحلات أيام زمان واليوم "
موضوعات من كتاب"
رحلة نحو بغداد "

3

للرحالة موريس هونوريه

مطبوعات بيير روجيه (باريس – 1929)

" Voyage de jadis et d'aujourd'hui "

VERS BAGDAD

MAURICE HONORÉ

Éditions Pierre Royer (PARIS - 1929)

مقدمة المؤلف

يلزم الأمر أن لا نطلب في هذا الكتاب تميزاً واضحاً فيما عدا الصدق المطلق والدقة المتناهية قدر المستطاع، إذ انه يتناول موضوعاً محدداً جداً وهو طبيعة الأشياء كما هي والتي يمكن ملاحظتها خلال الرحلة السريعة جداً التي يجري الحديث عنها في هذا الكتاب. تلك الرحلة السياحية عبر ألفي كيلومتراً في بلدان وجدها المؤلف بعيدة جداً منذ الوهلة الأولى.

لذا فإن القارئ سوف لا يجد في الرحلة على الأقل رواية ضعيفة جداً أو مملة إذ قلما توجد مسألة غير هامة فيها، وأغلب الحديث يجري عن ألوان السماء والرمل والماء والزخارف وزي السكان الأصليين للبلدان التي شملتها الرحلة أو الحديث عن بعض المصاعب والمشاكل البسيطة التي تخللتها.

في حين أرى أن خيبة أمل القارئ من الممكن أن تبقى مستمرة لا سيما أن الموضوع يبدو أكثر إثارة للاهتمام، فالبلدان التي نتحدث عنها هي في الحقيقة غنية بتاريخها الممتد في الأعماق لعدة آلاف من السنين وسكانها أقل شهرة لدى الشعوب الأخرى فهم يختلفون عنا في حين نحن لا نختلف عن الإغريق والرومان.

أخيراً، ينبغي الإشارة إلى أن وضع هذه البلدان يعّد مشكلة كبيرة لا نرتضيها نحن أو نتقبلها ولكن بالرغم من بعدهم عنا فإن حقوق ومصالح فرنسا يجب مراعاتها هنا، (ولو أننا حاولنا التشكيك في أهمية هذه المسألة فإن موقف خصومنا يكفي ليدلنا على ذلك).

إن أهمية هذه المشكلة التي عالجناها في أماكن أخرى، قد تم بحثها بشكل شامل من قبل شارل تاسارت (Charles Tassart)[1] ولورنت فيبير(Laurent Vibert)[2]، وموريس بيرنوت (Maurice Pernot)[3]، وبالنسبة لتأريخ بغداد نفسه فإن هناك بعض التفاصيل المقتبسة من كتابين : الأول تقليدي لمؤلفه كليمو هوار[4]، والآخر لرجل شرقي كان قد أكمل دراسته في المدارس الفرنسية في المشرق هو حبيب شيحا[5]، هذا الكتاب الأخير طبع في فرنسا قبل عشرون عاماً من قبل مكتبة مصرية لكنه قليل الشهرة عندنا، وقد تمت سرقته أدبياً دون استحقاق، وذلك من خلال كتاب نشر في باريس خلال الحرب مع مقدمة لوزير فرنسي، يدهش المرء من حسن نيته وهو يتضمن تقريباً صفحات كاملة من كتاب شيحا منقولة حرفياً.

أخيراً توجب عليّ أن أقدم شكري إلى من استضافني أثناء وجودي في بغداد، فضلاً عن توجيهاتهم السديدة لي، كذلك إلى السيد لويس ماسينيون الأستاذ في الكوليج دي فرانس[6].

---

[1] شارل تاسارت (Charles Tassart)، ضرورة تطوير النفوذ الفرنسي في بلاد مابين النهرين، المنطقة الشمالية وكردستان، باريس، 1919 (تقرير مقدم لجمعية المهندسين المدنيين في فرنسا، يناير – مارس 1919).

[2] لورنت فيبير (Laurent Vibert)، ما رأيته في الشرق، دار نشر هاشيت، باريس، 1924 .

[3] موريس بيرنو (Maurice Pernot)، القلق الآسيوي : (1) على طريق الهند . (2) في آسيا المسلمة،دار نشر هاشيت، باريس، 1927.

[4] كليمو هوار (Clément Huart) : تأريخ بغداد، دار نشر لوزوكس، باريس،1901.

[5] حبيب شيحا (Habib Chiha) : إقليم بغداد،مطبعة المعارف :نجيب متري، القاهرة، 1908.

[6] ماسينيون (M.Massignon)، أقدم له شكري على إعانته لي وإسداء آرائه السديدة عن هذا الكتاب، وتقديمه لي صور السيد موجيه (Mauger) التي كانت قد أعطته إياها عائلة هذا الأخير.

- نحو مدينة الخلفاء -[1]

إنها الساعة الرابعة صباحاً بالتوقيت المحلي، لم يزل الليل مخيماً إلا انه وقت المغادرة إذا أردنا أن نكون في بغداد قبل غروب الشمس وذلك بسبب سهولة ضياع ثلاث أو أربع ساعات بتوقفات طارئة خلال الرحلة، فضلا عن ذلك كان القمر عالٍ بما فيه الكفاية لكي ينير الأرض حتى بزوغ النهار. مستأجري هو من السكان الأصليين لمدينة بغداد، يرتدي بدلة من قماش ابيض مع قبعة شرطة سوداء اللون، وهو لا يبدو أفضل من هارون الرشيد بتاتا!!

غادرنا عبر الأراضي المتموجة باستثناء بعض الأراضي المستوية بمحاذاة نهر دجلة حيث لم نتأخر في الابتعاد عنها، ثم بلغنا أرضاً سهلية مملة في السير تحت ضوء الشمس الشهباء وقت طلوعها.

فجأة، فوق واقية الريح باغتتنا موجة عنيفة من كتلة غامضة حجبت النظر عنا تماماً، صدمات متكررة وضربات صاعقة، إنها أسراب طيور من الجوارح : عقاب، ستاوة [2]، نسر، وقد انتهى المشهد بالفرار وذلك بسبب عدم معرفتنا تماماً ماهية المهاجم، ربما نحن السبب عندما أخطأنا بسحق اثنان أو ثلاث منها حيث لم تكن تمتلك الوقت الكافي لكي تطير من تحت إطارات السيارة، أية طيور بديعة ! على أية حال دون وجود واقية الريح، كانت ستحدث مواجهة جسم لجسم، والتي لم تكن لتنتهي ربما لصالح "الحضارة".

قلعة الشرقاط[3] تقع في نهاية خط سكة الحديد القادم من بغداد الذي من المفترض أن يصل إلى الموصل ويتجاوزه فيما بعد ليرتبط بالخط المغادر من استانبول، ولكن من الآن فصاعداً سينتهي هذا الخط هنا، ذلك أن بريطانيا لا ترغب بإكماله، أما

---

[1] الفصل السادس من الكتاب .

[2] الستاوة : طائر من رتبة الجوارح وفصيلة الصقرية .(م) .

[3] قلعة الشرقاط : قلعة أثرية هامة تقع في منطقة أثرية تعود إلى زمن الآشوريين، تسمى المدينة التي تقع فيها حاليا (قضاء الشرقاط) التي تبعد حوالي 120كم إلى الجنوب من مدينة الموصل قريباً من الطريق المؤدي إليها من مدينة بغداد .(م)

في حالة ذهاب القطار من بغداد إلى الموصل فإن ذلك سيكون بواسطة خط أكثر قرباً من الحدود الإيرانية قاطعاً منطقة البترول الممتدة الآن حتى كركوك.

إن سكان الموصل الراغبين في الوقت الحاضر بالذهاب إلى بغداد بواسطة السكك الحديدية يتوجب عليهم أولاً قطع مسافة تزيد على مئة كيلومتر بواسطة السيارة من اجل المجيء إلى هنا إذ أن سكك حديد مابين النهرين تقوم الآن بتسيير قطار واحد أسبوعياً.

إن التزود بالبنزين وتناول الطعام كان وقوفاً حيث يقع على جهة اليسار المستودع بمساحته الواسعة (إذ أن الأراضي هنا ليست مرتفعة الثمن)، أسواره مشيدة من تكديس صفائح فارغة وإلى اليمين عربات ومجاميع من الجمال جاثية، هذا ونصادف هنا ثلاثة وسائط للنقل : يعود قدم الأولى إلى ثلاثين عاماً كأقصى حد، والثانية يبلغ عمرها المائة عام تماماً، أما الثالثة فإنها أكثر قدماً من المذكورتين آنفاً، وعبر تلك الوسائل لا نعلم كم من الآلاف منها قد استخدمت حتى نبلغ الأصول السحيقة والغامضة للبشرية.

كم من الوقت بعد ذلك سيدوم هذا الوضع ؟ إذ أن سكة القطار كانت قد حلت بجدارة بدلاً عن طريق القوافل ولكن أخريات بقيت أو أنشأت كخطوط فرعية للسكك الحديدية.

أما الآن فان السيارات تشق الصحراء وقد وضعت بدلاً من الهياكل العظمية للجمال، أغلفة قديمة مملوءة بالهواء المضغوط أو صفائح بنزين كعلامات إرشادية على الأرض، ولكن مع ذلك فإن واسطة النقل عن طريق القوافل لربما تعود مرة أخرى في وقت عرفت فيه فترة ما بعد الحرب بعض طرق السكك الحديد في المشرق مشكلات جدية، ألا وهي زيادة الأجور بشكلٍ مرتفع وذلك من أجل تغطية النفقات، ولكن هذا لا يعني مساواة النقل بواسطة القطار الأكثر تكلفةً مقارنةً بالقافلة، إنما ذلك فقط سيسمح للجمل بأن يثأر من القاطرة.

إن قلعة الشرقاط هي ليست سوى اسم لبلدة عربية،حمل اسما حديثاً إذ يعود عمرها إلى ألف ومئتي عام أو ألف وثلاثمائة عام كأقصى حد، ولكن في سالف الزمان كانت هذه الأماكن مقراً للعاصمة الأولى للآشوريين وقد حملت ذات اسم الملك الإله، فقد أسست مدينة (آشور) منذ أكثر من أربعة آلاف عام أي زهاء القرن الرابع والعشرين قبل ميلاد المسيح، حيث تقع قريبة من هنا العديد من الكتل الآثارية : هضبة أو (تل) شبيه بتلك الهضاب التي نشاهدها قبل الوصول إلى مدينة الموصل، لكن القلعة تقع على تلٍ كبير يبلغ محيط دائرته عدة كيلومترات، محاط بسلسلة متتالية من التلال المنتظمة، في حين ردمت الحفريات في فترة التنقيبات التي قام بها عدد من الآثاريين الألمان، تلك التنقيبات التي كانت مثمرة وقادت إلى اكتشاف نصوص مسمارية وأعمال فنية قيمة أعطت هذه النصوص تفاصيل دقيقة حول القانون الزراعي الذي كان معمول به قبل ألفي عام من الآن، وقد اكتشفت نقوش من البرونز المطروق أكدت الأعمال الباهرة التي قام بها ملوك ذلك الزمان فضلاً عن تماثيل صغيرة تبين عادات الزي والمظهر المألوفين في تلك الأيام حيث يقوم الرجال بإطالة اللحية وحلاقة شعر الرأس.

هذا وتستمر الصحراء بامتدادها، تتخللها شقوق الوديان والجداول إذ توّجب على السيارة التوقف بين حين وآخر، في وقت كانت تسير فيه بسرعة فائقة لدى النزول وذلك من أجل صعود الطرف الآخر بسهولة، وقد أصيبت قاعدة سيارتنا من جراء ذلك بأضرارٍ وتشققات بليغة، في حين كان السقف أكثر ارتفاعاً من أن تصله رؤوس المسافرين ومن ثم توقف المحرك فجأة وقد رجعنا إلى الوراء من اجل أن ندفع السيارة من جديد، حتى انتهى بنا الأمر إلى مواصلة السير.

أحياناً ترتفع أعمدة من الرمال قريبةً منا لتثير إعصارها الذهبي، بعد ذلك تبتعد ثم تتوارى، وقد كان الجو بهي مشرق في البداية ما لبث أن أصبح حاراً جداً ولكن هل سيبقى هكذا دون أن يتلوث ؟ منذ دقائق من الآن وقد بدأت غيوم متقطعة

خفيفة ونسالات سوداء تجر ذيولها نحو الأفق، وهي تتمدد ثم تختفي وتظهر مرة ثانية ثم تتبدد لتظهر مرة أخرى وهكذا...

بعد العاصفة الرملية الشديدة هل هنالك كارثة أخرى جديدة بانتظارنا ؟ لكننا على الأرجح سوف لن نهرب منها، إن هدف الغيوم المتناثرة الشبيهة بخرق بالية التي تلطخ السماء الصافية أخذت تلتحم وقد شكَلت سحابة واحدة انتشرت وتمددت بسرعة فائقة، أصبحت قريبة منا دون شك، ثم فجأة في لحظة وصولها فوق رؤوسنا صارت هذه السحابة الغامقة هائلة الحجم وهي ترش من السماء أعداداً لا تحصى من الطيور المعروفة بالترغلات[1] تخفق بأجنحتها بلا انقطاع، لماعة وصدفية بريقها، تحدث أمواجاً صاخبة من جراء تصفيق أجنحة رمادية وبيضاء فوق أجسادها الزرقاء بلا خوف يمرَن ويكررن المرور ثانية من كل طرف حولنا ثم يضعن أنفسهن تحت إطار السيارة تقريباً بعدها يعاودن الطيران، يرافقننا للحظات ثم يتركننا نذهب ويشكَلن خلفنا من جديد سحابة سوداء ما تلبث أن تذوب في السماء. شكراً عزيزاتي الترغلات لزيارتي من أجل تذكيري بالجنة الأرضية التي ازدهرت في سالف الزمان لاسيما في هذه المناطق حينما لم يكن الإنسان حينذاك شريراً بل كان يعيش في ألفة ومحبة مع الحيوانات.

ولكن أي طريق سيسلك السائق ؟ بعد أن شغل نفسه مرتين أو ثلاث باختيار الطريق الأفضل، ولم نعرف لماذا قام بالعبور من جهة إلى أخرى عبر السكة الحديد حتى انتهى به الأمر إلى ترك الخط متجهاً إلى اليسار بعيداً جداً عن مسارنا، ومن ثم اهتدينا إلى الطريق ثانية مع دهشتي الفائقة – نحن تقريباً على ضفة الفرات ونعلم جيداً أن بلاد مابين النهرين تضيق وتختنق قريباً من بغداد، مع إنه لا يبدو لي – بعد كل حساب – أن من الضروري عبورها بطرقٍ متعرجة وذلك بالتنقل من جهة إلى أخرى، فمن السهل جداً إتباع الطريق المحاذي لنهر دجلة تقريباً. دون أدنى شك ممكن انه

---

[1] الترغلات : جنس طير من القواطع، ومن فصيلة الحماميات . (م)

الفرات بعينه، ولكن بما انه ليس للفرات ولا لدجلة روافد في هذه الأراضي وفي ظل هذه التعرجات المبتكرة فإنه من المرجح عدم استطاعتنا الوصول إلى بغداد هذا المساء.

بعيداً عن مثل هذا الهم، فقد تملكتنا الغبطة برؤية هذا المسطح المائي الجميل المتجانس كقطعة مرآة، حيث يظهر بأمانة التفاصيل الأدنى للشواطئ ولبعض الجزر المنتشرة، إنها فرصة ثمينة لنحصل على الماء مرة ثانية، على بعد خمسون متراً من هنا دون الانحراف خطوة واحدة سنكون على حافة النهر، وبفضل استدارة النهر سوف يكون أكثر بعداً، إذ لا نستطيع الوصول إلى الشاطئ دون مواجهة هذا النتوء النهري الصغير وصخوره الاثنتين أو الثلاث البارزة بين المياه. أخيراً فلنرى هل هو موجود فعلاً ؟

ذهبنا إلى هناك وقد تساءلت : لماذا هكذا كل شيء قد تغير شكله ؟ هل أنا نائم، هل هذا حلم ؟ آه انه ليس هذا ولا ذاك انه السراب، نعم السراب يظهر كلما اقترب المرء من مجرى هذا النهر التخيلي ! حيث يجده يتلاشى شيئاً فشيئاً، في حين يبرز أمامنا مجرى نهر آخر. ولدى التفكير في هذه المياه الصافية فان أصغر العوارض الأرضية تبدأ بالاختفاء في اللحظة التي يعتقد فيها المرء انه يلامسها. إن الهلوسة الوهمية تتكرر إلى مالا نهاية وهي تدعو الطير الذي يضع نفسه تحت الأقدام أن يبتعد بضع خطوات ثم ليهرب أيضاً في اللحظة التي يصله فيها المرء.

لا يهمنا كثيراً هذا الماء الذي اعتقدنا رؤيته، ليس لنا حاجة فيه، ولكن أي عذاب للمسافر الذي لا يستطيع أن يشرب منه يعاني من العطش في حين يعلم بأنه سوف يموت من جراء ذلك، موت مؤلم بشع في وقت يرى أمامه لمعان ومن ثم زوال هذه الغواية المؤلمة الهازئة! يلزم الأمر إذن إصلاح المسألة. فبما أن ذلك يبدو سراباً وليس نهر الفرات كما اعتقدنا، وما قد بدا لنا من المحتمل ليس حقيقة، فلنسترجع الثقة بأنفسنا لكي نعود إلى الطريق الصحيح، حينها سنصل بعد ظهر هذا اليوم إلى بغداد.

لدى عطل إحدى إطارات السيارة كانت فرصة رائعة للنزول والمشي قليلاً على أرض رملية سمراء تحت القدمين، خصلات فقيرة من حشائش صغيرة، إنهن صفراوات بما فيه الكفاية، لذا يستحق أن يطلق عليهن (أعشاب)، لكن لا يمكن اعتبارهن كنوع من القش وعلى امتداد مسافة بعيدة نجد أن هذه الأشكال الدقيقة الناعمة المنتشرة بالآلاف كأنها مرسومة على قماش بأشكال انطباعية[1] وهي تغطي مساحات واسعة بخضرة زكية - كأنها رائحة العنبر أو شبيهة برائحة نباتات الخباز وقت ظهورها- تمتد على أراضي شاسعة حتى تصل الجبال العالية التي لا يمكن عبورها والمحاذية للهضبة المرتفعة لبلاد فارس.

لقد انتهى تصليح الإطار العاطل للسيارة، مع ذلك فقد ساورنا قليل من القلق، في حين لم يكن حينها لدينا شك في وصول بغداد عند الظهر أو بعد ساعة من الآن إذ لم يزل لدينا متسع من الوقت، ولكن ماذا سيحدث في حالة وقوع عطل لا يمكن إصلاحه ؟ وكم من الوقت ستستغرق السيارة كي تصل انطلاقاً من هنا وبسرعة مناسبة ؟ إن لدينا من المؤونة ما يكفي ليوم واحد بالكاد ونحن لا نعلم كم هو عدد محطات السكك الحديد التي أمامنا ولم يغب عن أذهاننا أن هنالك قطار واحد فقط يمر أسبوعياً، في حين أن البدو السلابة من المفترض أنهم أقل ندرة هنا.

لحسن الحظ كل شيء يسير على ما يرام فالمشوار مستمر بلا فائدة ولكن بلا عقبات أيضاً، هل صحيح أن هذا الأفق الشاحب بلون وردة الكتان سيفضي إلى إعطاء بريق ذهبي ؟ هل انه أكثر إستجابةً إلى نداء هذا الكوكب المجهول منه إلى ذلك العمود الدخاني ؟ لقد شرعنا اعتماداً على النجم بمسير جديد باتجاه هذا الضياء الزاهي الذي يرى في وضح النهار على حدود وتخوم الصحراء.

---

[1] الانطباعية : نظرية جمالية تقضي باتخاذ الانطباعات المحسوسة مبدأ للخلق والنقد . (م)

سرنا عدة كيلومترات وعدة كيلومترات أخرى في الرمل باتجاه هذه المنارة التي فاجأنا وجودها أمام أنظارنا، وها نحن قد وصلناها، إنها تقع في قرية كبيرة أو مدينة صغيرة حيث هنالك أكوام من المكعبات الأرضية الصحراوية اللون كبنية لها ظلال قاتمة، في حين تشمخ فوقها قبة كبيرة مذهبة تماماً لها شعاع وبريق يلمع ضيائها من مسافة ساعة تقريباً مؤ طراً لمعانه أفق السماء، إنها القبة الكبيرة لمسجد سامراء، تلك المدينة التي شيدت في سالف الزمان منذ ما يقارب الألف عام، بناها ابن هارون الرشيد وقد كانت المدينة المفضلة لإقامة العباسيين خلفاء بغداد آنذاك.

أي اختلاف بين هذه القباب وقبابنا في الغرب تلك المغطاة بجفور يعكس شعاعها، والمرصعة بالزجاج ذات الواجهات المزخرفة، إنها شبيهة بالكوات المستديرة وزخارف المداخل المموهة لكنيسة سانت بيير (Pierre–Saint) في روما، في حين نجد القبة هنا محدبة باتجاه قاعدتها تنتهي بقرن صغير في قمتها (وهو شكل معماري فارسي يسمى بشكل دقيق "بصلية")، إنها عبارة عن شكل ظلي ممتلئ ومغلق وهو غير مكلف الثمن ويبدو جاهز لكي يفصل من قاعدته ويرفع مثل كرة و فقاعة صابون، إنه سطح متحد مصقول دون بروز ظاهر على سطحه قد يفسد نطاقه المحدب المتناسق، انه تصميم صافٍ جداً، ليس هنالك أجمل من هذا الكساء الذهبي الذي يلمع من بعيد[1].

لقد مررنا بمحاذاتها وتجاوزناها دون أن ندخل إليها إنها مدينة الأرض اليابسة تلك التي فوقها تتلألأ القبة المتفتحة في السماء الزرقاء مثل برعم وردة كبيرة.

---

[1] انه ذهب بعينه، عبارة عن صفائح ذهبية خالصة هبة من نادر شاه راعي الجمال الذي أصبح فيما بعد شاهاً للفرس، تقدّر قيمتها بعدة عشرات من المليارات، ذهّبت بها قبة سامراء وقباب الكاظمية قريباً من بغداد، كذلك مشيلاتهن في النجف وكربلاء البعيدات كثيراً من هنا، ذهبت من عطايا المحسنين وتبرعاتهم . في الشرق أكثر من أي مكان آخر يستحق التأريخ وصفاً بانه : "العلم الحدسي" من هنا وتبعاً لمؤلفين معينين فإن كرم نادر شاة هذا قد انصرف بشكل محدود إلى تذهيب مسجد النجف، في حين أن القباب الأخرى تم تذهبها من عطايا المحسنين وتبرعاتهم : في الشرق أكثر من أي مكان آخر يستحق التأريخ وصفاً بانه "العلم الحدسي الضعيف والفقير"، قد يندهش المرء بأن مثل هذه الثروة هي معتبرة حتى أيامنا هذه ولكن من النادر جداً أن يبلغها المرء دون أسس لثروات ضخمة .

من وقت لآخر تظهر أمامنا علامات تشير إلى المسافات المتبقية من الطريق للوصول إلى بغداد، وتبعاً للأخيرة منها فإن بغداد لم تعد تبعد سوى ستون ميلاً (حوالي مئة كيلومتر)، حيث سنصل قبل غروب الشمس تقريباً، وكان يتوجب علينا أن لا نغادر الموصل متأخرين ساعتين إذ أن التصليحات قد استغرقت ما يقارب معظم الوقت الذي يمكن أن يكون فائضاً، في حين أن هناك ثلاث ساعات تبدو أنها ستكون رتيبة.

ارتطام مفاجئ ! وإنذار خاطئ فالسيارة مستمرة بالمسير وليس هناك أي شيء أمامنا، هل كنت شارد الذهن ؟ هل هناك حيوان ارتكب حماقة بمجيئه ليرتمي تحت إطارات السيارة ؟ بعد العقاب والنسر لتلك المبارزة الصباحية.

على المرء أن يتوقع كل شيء، ليس هنالك أية جثة لحيوان خلفنا ولا إلى شمالنا أيضاً ولا إلى اليمين فهاهي بدت أمام أنظارنا، وقد تجاوزناها بسرعة، إنها جسم أسود اللون، حقيقةً الحيوان الذي سحقناه لم يزل بحالة جيدة بما فيه الكفاية! يا للفظاعة إنه ليس حيوان، إنه أحد إطارات سيارتنا التي بدون شك أرادت أن " تبقى على قيد الحياة "، والسائق رابط الجأش يقود السيارة بشكلٍ مطمئن، هل هو يتباهى بأنه قطع أكثر من مائة كيلومتر على سيارة هابطة إلى مستوى دراجة هوائية ؟ وقد انتهيت إلى إرشاده إلى الإطار في لحظة اختفائه، حينها توقف عن المسير، هذا الطفل المسرف الذي أصبح قريباً من جسم السيارة في حين حاولنا ثمان أو عشر مرات أن نرفعها.

مع ذلك لم يتبق لنا سوى تصليح قاسي ولفترة طويلة، إذا أردنا الوصول إلى بغداد قبل حلول الظلام، وهنالك عدد من المجرمين القريبين أشار إليهم ضباط إنكليز وهم يحذروننا بأن ضواحي المدينة ليست آمنة جداً، من المؤكد أن هذا السائق الذي لم يجهز بعد أدوات سيارته سوف لا يتوصل إلى شيء فالوقت يمضي والشمس آخذة بالغروب في حين ظهرت أمامنا فجأة قافلة قادمة من جهة بغداد، وتبعاً لندائنا اقتربت القافلة وقفز الجمّالة من على ظهور جمالهم دون أن يجعلوها تجثم على الأرض في حين

بدا توافق من صياح حنجري يتعالى بين الطرفين، في تلك الأثناء لم يقم الأوروبي سوى بالنظر إلى القادمين الجدد: الأطراف والأقدام عارية الملابس مهترئة وواسعة، ضفائر شعرهم (مثل تلك التي تضفرها تلميذات الموصل) تنزل على الجبهة ومتدلية على امتداد الخدود لتستقر على الصدر كتسريحة، أما الكوفية فهم يرتدونها بشكلٍ مستمر وهذا النوع من الوشاح أو الفوطة مرقط بشكل متراص باللون الأسود أو الأحمر يخفق على الأكتاف وهي مثبت على الرأس بواسطة العقال. هيئة هؤلاء القوم تبعث على القلق حقاً وهم يتميزون بنوعين من السحنة : الأكبر سناً سحنتهم برونزية جداً، بدون لحية ووجه عظمي متجعد بقسمات دقيقة جداً مع مظهر اجتماعي عطوف نوعاً ما (عندما لا نقوم باستفزازهم)، تفاصيل غير متوقعة : عدة أسنان مصفحة بالذهب يحاول المرء تخيل تقابل رأس بدوي رحالة مع رأس طبيب أسنان. أما بالنسبة للشباب فوجوههم ممتلئة وسحنتهم نضرة وجوههم بدون لحى، بالرغم من أن أعمارهم تتراوح بين العشرين والخمس وعشرين سنة على وجه التقريب، وشيئان تميزهم : الأهداب المخملية الطويلة والنظرة الفظة المحملة بالازدراء.

هذه المرة هنا نستطيع القول أن المظاهر مضللة الآن على الأقل، هؤلاء الناس الشجعان ساعدونا بقدر ما استطاعوا لكن دون أي نجاح وقد اتجهوا صوب تركيا وتواروا في الأفق، في حين بقي الغرقى (إنها حقيقة الكلمة الدقيقة هنا) وحيدون وسط المحيط الرملي.

لقد غابت الشمس من الجهة التي تقع فيها فرنسا الخضراء والباردة التي كنت قد جننت حين تركتها. الشمس مائلة للغروب في غضون دقائق ليس إلا والليل سيخيم علينا حتماً.

أية فكرة وهمية غير مسموح بها إنه أهون على المرء أن يسجن بين أربع جدران في زنزانة من أن يكون على حالتنا هذه في ارض شاسعة بين ذراعي هذا الفضاء الرحب. إن سجن (عين الغزال) ليس سوى دعابة مؤدبة، هذا كان جدياً فيما مضى

في حين صرنا نتمنى أن نرى مجرد كائنات بشرية، هل الحال مستحق الخشية ؟، إذ أنه في حالة عدم مرور شخص ما، فإننا سنموت عطشاً، انه أكثر أنواع الموت بشاعةً، لقد جاء السائق ليبدي حركة جزع : آه لقد هزمت الصحراء السيارة ليس ذلك تماماً، إذ أنها لم تأخذ أحياناً ثأرها المخيف والمهول. وحول أزمتنا، رفع الغسق البنفسجي أشرعة الحزن بهدوء حيث هبط الليل في الحال تقريباً، ليل مظلم شفاف، هادئ وفاتر، ملائم للتفكير الصافي، يالها من سخونة فظة!

ضوء وأصوات بشر، هل علينا أن نصدقها أو نشك فيها ثانية ؟ يالها من مفاجأة : نحن قريبون تماماً من سكة الحديد على مسافة أقل من كيلومتر واحد عن المحطة، تَموج قليل في الأراضي التي نمشي عليها حجبتها عنا، هذا الضياء هو لعربة قطار جاءت لنجدتنا بناءً على طلب السائق الذي لم ألحظ اختفاءه، أخيراً أصبحت الرؤيا واضحة، إنه القطار الأسبوعي (المجهول من قبلنا حتى الوقت الحاضر)، ستمر هذه الليلة، وسنكون غداً في الساعة الثامنة صباحاً في بغداد إنشاء الله، هانحن قد نجينا من الهلاك، هنالك حقاً إله يرعى المسافرين أثناء رحلتهم.

إنها عربة غير متوقعة في برنامج الرحلة نقلتنا خلال خمس دقائق إلى المحطة : المسماة (بلد) [1]، وقد أرشدتني معلوماتي البسيطة في الجغرافية إلى ذلك الاسم، استقبال حسن من قبل مدير المحطة، انه هندي بالتأكيد وفي الفناء الداخلي الكبير للمحطة، يوجد بشكل متتالي مطعم وعنبر نوم يوفر (للغرقى) ضيافة لا يمكن للمرء أن يجرؤ على أن يحلم بها قبل ربع ساعة من الآن. في البدء قدمت لنا وجبة عشاء غريبة مع بسكويت محشو ببصل مفروم ثم ذهبنا لنرقد على أسارير نوم موجهة صوب النجمة الجميلة مثل التي ينام عليها كافة العاملين في المحطة.

هكذا إذن يوم غد سندخل مدينة الخلفاء، مع أن الأمر يلزم أن لا ننتشي أبداً، نحن لا نتوقع أن نجد مدينة ألف ليلة وليلة التي سمعنا عنها، يجب علينا أن لا ننسى أن

[1] بلد . مدينة صغيرة تابعة إلى مدينة سامراء تقع حالياً على بعد نحو ثمانين كيلومتراً إلى الشمال من بغداد .(م)

بغداد لم تعد سوى اسم فحسب ذلك أن لها قصة تراجيدية، هذه المدينة التي كان أحد أوائل أمرائها هارون الرشيد الذي أدهش الغرب بالغنى والإفراط في تقديم الهدايا ومنها ما كان يرسله إلى شارلمان، لقد كانت بغداد فتية حينذاك، عمرها لا يتجاوز الخمسمائة عام بالكاد وتحديداً في وسط القرن الثالث عشر حين قام هولاكو الأخ الأكبر لخان التتار الكبير وحفيد جنكيزخان الغاشم الفظ، بمحاصرتها وأخذها عنوة واضعاً نهاية لإشعاع الخلافة العباسية.

لقد قام هولاكو أيضاً بمذبحة عامة تقريباً تجاه سكان المدينة، عملية كانت متوافقة تماما مع ممارسات ذلك الوقت (بعض المؤرخين اتهموه بإحداث ضرر كبير وخطير وذلك بإتلافه المكتبة العظيمة لبغداد)، ولكن فيما بعد مع مطلع القرن الخامس عشر احتلت هذه المدينة دون ضرر كبير من قبل تيمور المرعب أو تيمورلنك، وحينما ثارت المدينة ضده قام بإهلاك معظم سكانها وهدم آثارها التي صنعت فيما مضى مجدها.

أخيراً فقد أعيد بناء هذه المدينة المدمرة، بعد ذلك احتلها الفرس لمرتين وقد نهبوها أثناء احتلالهم لها في مطلع القرن السادس عشر والقرن السابع عشر على التوالي.

لقد خلصت إلى النوم مستغرقاً بالتفكير في مساجد الفرس البعيدة من هنا كثيراً، ففي مصلى تيمور هناك منارة ضخمة جبارة ترتفع عالياً على البحر في مدينة سمرقند تماماً على طريق غزو الأقوام التترية.

قبل نهاية الليلة استقبلنا القطار شبه نائمين واصطحبنا إلى بغداد.استيقظت في الحال تحت أشعة الشمس المرتفعة والشديدة وقد بدت في الأفق أشجار النخيل الممتدة بين شحوب السماء وبين الأراضي التي تنتشر فيها خطوط من الخضرة الغامقة، ثم بدا لنا منحنى طويل مرسوم حول الضاحية ومنازل وحدائق مغبرة تتلألأ فوقها ذهب قبتين متشابهتين.

أخيراً بعد أن عبرنا ضواحيها القاحلة وصلنا محطة في وسط الرمال : إنها بغداد.. حمداً لله !

بغـــــداد[1]

كررت القول : ((إلى البعثة الفرنسية)) دون أن تتحرك خيول العربة أدنى حركة أو الحوذي، فقلت : ((إلى الطائفة اللاتينية *Latin Church*)) فانطلقت العربة بي في حين انتابني الخوف وأنا أشاهد مدينة ألف ليلة وليلة وقد تغيرت لربما بواسطة مفتاحٍ سحري. لقد عبرنا أراضي جرداء وعند مفترق الطرق هناك شرطي عراقي فوق قمة خشبية يحتمي من الشمس بمظلة خشبية أيضاً، وقد مررنا بشارع عريض تطل عليه مقاهي كبيرة في الهواء الطلق ذات مقاعد طويلة، وفي الظل شاهدنا أشجار نخيل نحيفة جداً برزت من بين الرمال ومن ثم مدخل أثري لجسر ذو منظر كئيب للغاية اجتزناه بشكلٍ سريع جداً تحت ضياء النهار الساطع. نهر دجلة الذي تطل عليه منازل وحدائق تنتشر فيها رؤوس أشجار النخيل ومنارات رؤوسها مغطاة باللون الأخضر، بعدها وصلنا إلى الشارع الكبير لمدينة بغداد الذي نجد فيه كذلك قذارة ماثلة للعيان بشكلٍ جلي، وهو واسع ومكشوف بلا ظلال مع فيضٍ من عناوين محلات وإعلانات بالعربية والإنكليزية.

جمع غفير من جمهور غير متجانس معظمه يرتدي زي تقليدي- كما هو الحال في الموصل - وهو عبارة عن بدلة بيضاء وقلنسوة شرطي سوداء أو طربوش أحمر، نساء (مسيحيات ومسلمات) ملتفات أو بالأحرى مقيدات بثيابهن مع قطعة كبيرة من الحرير ملقاة على الرأس، وهي تصل حتى الأقدام وذلك لغرض تغطية كلا الذراعين. أما الثوب فهو من لون واحد، كريمي، ازرق، سمائي، نيلي، أخضر، وردي، رماني، أسود، مع بعض المشبّكات الزهرية المطرزة بالفضة ترتديه النساء

[1] الفصل السابع من الكتاب.

المسلمات بمثابة خمار ولدى القسم الأكبر منهن نوع من الحجاب أشبه (بالنافذة) محاط بشريط مطبق بشكل محكم على الوجه ومعتم دون شك.[2]

لقد توقفت العربة، ويبدو أن كلمتي ((الطائفة اللاتينية)) قد فقدت تأثيرها ونفوذها فيما مضى من الزمن إذ أن الحوذي أو ما يسمى هنا بـ" العربجي " إكتفى بأن أرشدني إلى طريق على جهة اليمين من الشارع الذي كنا نسلكه دون أن يدخل فيه، وكان ذلك الطريق ضيقاً إذ لا يوجد مكانٍ كاف لمرور عربة. بالتأكيد، لم أحرك ساكنا ً، في حين أومأ لي شيخ ذو لحية مهيبة، نبيلِ جداً، تحت ثياب رثة، وهو يشير لي بالنزول، في وقت افترش فيه فراشاً على الأرض، وقد حاولت عبثاً عدم الامتثال له لكي لا أكون دون شك متجهاً إلى الموت لكي أذبح، لذا فقد ترددت للحظات أمام هذا المشهد الذي هو ربما ليس سوى دعوة للبخشيش، لم أتردد لوقت طويل لأن هذا الفراش لم يكن لي شخصياً فقد ألقوا فيه أمتعتي وعقدت زواياه الأربع، ووضعه الحمال ذو القامة الصلبة القوية فوق ظهره، وباشر بالمسير في حين دعاني للحاق به، أطعته وها نحن ندخل في متاهة من الأزقة الضيقة التي هي في الحقيقة لا يمكن لعربة أن تمر فيها حتى ولو رفعت إطاراتها، في حين أصبحت السماء غير مرئية بشكل كامل ونحن نسير بين منازل ذات جدران مائلة الواحد نحو الآخر حتى تبدو كأنها متجاورة، وقد انتابني شعور بأنني سوف لا أجد طريقي ثانية.

أخيراً، قرأت لافتة بالإنكليزية " *Latin Church* "[1]، فلندخل هنا، وقد سمعتهم يتكلمون الفرنسية، إذن : إنها البعثة الكرملية التي أسست في بغداد منذ ما يقارب المئتي عام وهي أيضاً كما هو حال البعثة في الموصل تعّد ملجئاً للاستقبال الودي الحار المصحوب بالضيافة السخية التي تقدم للزائرين.

---

[2] لعله يقصد به (النقاب) الذي يوجب على الوجه والمسمى في بغداد ومدن العراق الأخرى (البوشي) الذي ترتديه أغلب النسوة العراقيات آنذاك.(م)

1 تعني الطائفة اللاتينية.

لقد وصلنا أولاً إلى ممر ثم إلى فناء مظلل حيث الضياء الساطع محجوب بواسطة مشبك ناعم من سعف أشجار النخيل فضلاً عن ستار كثيف من أشجار الموز، في حين يوجد في الطابق الأول فوق هذا الممر ممر آخر يوصل إلى منفذ يؤدي إلى الغرف، وقد شاهدنا من حولنا عدد من الزنابير الكبيرة وهي ترقص كسولة ولجوجة يرافقها أزيز متوعد، وقد اصطحبوني إلى غرفتي وتبعتني أمتعتي، في حين لم يتبق عليّ سوى دفع أجرة الحمال، فوجهني إلى المبلغ مضيفي ومشاوري فأعطيته إياه، في الوقت الذي بدر فيه رفض وغيظ من الشخص الذي نزل ثانية من العربة ودخل بغضبٍ شديد في مناقشةٍ عنيفة بالعربية الدارجة مع أمين الصندوق. أما المسافر فهو دون فهم لما يجري ودون أن يبدي مقاومة باتجاه قطع النغمة الدراماتيكية للحوار باقٍ بانتظار القرار.

"أعطه، إرم له النقود" حينها رمى النقود من مسافة تزيد على خمسة أو ستة أمتار، بحركة شبيهة بتلك التي تحدث في السينما، وقد رمى الروبيات المرفوضة في الحال والرجل ينظر إليهن، رفع رأسه وألقى نظرة محملة بالحقد وبالتهديد، ثم غادر المكان، بعدها عاد والتقط نقوده ثم غادر ثانية بشكل نهائي. إن مسرحيته القصيرة التقليدية لم تنجح ؛ وهذه بالتأكيد ليست المرة الأولى إذ أن هذا الرجل الصّياح وأمثاله ليس لديهم حاجة للتأمل من أجل الشروع في عمل ما ولا النجاح في الحفاظ عليه.

أنا الآن تلزمني المساعدة وذلك بإسداء النصائح لي حول جولتي وتنظيم برنامج إقامتي، من أجل هذا نزلنا إلى السرداب الذي هو عبارة عن غرفة واسعة تحت الأرض مفتوحة على الظل الخفيف للممر الداخلي. إن جميع سكان بغداد لديهم سراديب حيث يلجأون إليها للتخلص من الحر الشديد في أيام الصيف، وهي ذات نوافذ توفر هنا نصف ضوء النهار تقريباً والجو فيها صالح للتنفس وذلك بفضل منافذ تهوية تفتح فوق المنازل، تحديداً على السطوح حيث يقضي الناس ليلهم.

كان الخروج الأول لي لزيارة السلطات البريطانية على جانب النهر الأيمن ولحسن الحظ دلني إلى ذلك أحد مضيفّي، و إلا فإنني لم أكن أجرؤ على أن أخاطر

بنفسي في الخروج. أي تشابك معقد للأزقة، بل في الحقيقة أية أزقة فالحيطان المائلة للمنازل يمكن أن نلمح من بينها بالكاد شريط رفيع للسماء، فهي متقاربة بحيث يمكن لمس كلاهما في آنٍ واحد دون مد الذراعين على طولهما وهي معلّقة عليها رواقات وشرفات خارجية، غالباً مدمجة بإنحراف من أجل عدم الاصطدام بتلك المقابلة لها، وبواسطة هذه الرواقات يستطيع المرء المرور من منزل إلى آخر دون أن يضع الأقدام في الشارع، أبواب تفتح على نوافذ مظلمة وزوايا غير مشكوك فيها، خمسة دقائق في هذه المتاهة. في وضح النهار ليس هنالك شيء لا يصدق فلم تزل في الذهن قصص ألف ليلة وليلة الشهيرة وهي تتحدث في جزء منها عن الرجال المخطوفين الذين يختفون في قلب المدينة، لذا فإن المرء يتوقع أن يكون إما شاهداً أو ضحية لمشهد من هذا النوع.

جانب آخر أقل خطورة، إلا أنه كثيراً ما نصادفه وهي القاذورات التي تخلفها الحمير والتي تملأ الشوارع وتلوث الجدران عندما تلامسها أو لدى انزوائها قريباً منها أو لدى هروبها من أصحابها.

لقد تأسفنا على هذه الورطة ونحن نصل إلى الشارع الكبير في وضح النهار ذو الشمس القاسية، وقد تجاوزناه بسرعة لكي نصل إلى ورطة جديدة على ضفاف دجلة حيث توجد زوارق بمظلات من القماش الأبيض وقفف (وهي قوارب شهيرة في بغداد) عبارة عن سلال كبيرة مدورة تماماً يبلغ قطرها ثلاث أو أربع أمتار مصنوعة من مشبكات مضفورة ومطلية بالزفت تنقل فيها حمولات الفواكه والخضروات كذلك الدواب وغيرها، حينها تساءلت : هل أستطيع العبور بواسطة القفة ؟ كلا لا يمكنني ذلك، وكما يبدو فإنني سوف أهرب تحت الاستهزاء العام كخيار وحيد لي. إلا إننا بعد برهة من الزمن خضعنا للأمر الواقع وأخذنا أحد القوارب هكذا مثل برجوازي صغير.

على الضفة التي سرنا بمحاذاتها في البداية كان هنالك أطفال يستحمون بالرمل في صينية من نحاس مضغوط ونساء يأتين ليملأن الجرار بالماء ثم يضعنها على رؤوسهن وهي مصنوعة من النحاس، شبيهة بتلك التي كانت تستخدم قبل عدة قرون !!

لدى وصول القارب نحو منتصف نهر دجلة الذي يتجاوز عرضه المائة متر تقريباً بدأنا نرى على مهل ما كنا نشاهده على عجل لدى بداية وصولنا حيث توجد أرصفة على امتداد النهر ومقاهي وحدائق، كما برزت لنا قبعات أشجار النخيل والمنارات، إنها منارات مدورة شبيهة تماماً بتلك التي نشاهدها في تركيا لكنها أقل ارتفاعاً، لونها يميل إلى السمرة وهي منتهية بسقفٍ محدد بقبة صغيرة مضلعة مزخرفة ومصبوغة باللون الأخضر المائل إلى اللبني، وكان يغطينا من حولنا تماماً ضوء الشمس المنعكس على هذه المياه المحملة بالوحل، المتموجة والمائل لونها إلى لون الكريب مع آلاف من الأمواج المشذّرة بلون زرقة السماء والفضة.

بعد أن نزلنا من المركب قابلنا فخامة السير "هنري دوبس *Henry Dobbs*" المفوض الأعلى لجلالة الملك في العراق، وهو من سلالة كبار الموظفين الاستعماريين الذين يكونون أحد ركائز قوة بريطانيا والذين كانوا قد أعدوا لإشغال مناصبهم، في حين للأسف نجد في مناطق أخرى غالباً ما يتم إعداد المناصب وتهيئتها للموظفين.

جرى لنا استقبال حافل جداً، أعقبه حوار سياسي ممتع مع الرجل الذي كان عارفاً بلا شك بكثير من الأشياء وهو الذي يمتلك أصول الضيافة والكرم، لا سيما تجاه الأجنبي.

اجتمعت في وقت الغذاء تحت الظل البارد للسرداب جميع البعثة لتقيم مأدبة للضيف القادم من مكان بعيد، هذه البعثة التي يعود تأريخ إنشائها إلى عام 1730م (قبل هذا الوقت لم يكن لدى البعثات الدينية الحق بالإقامة في هذه الأقاليم)، وقد سمي مؤسسها فيما بعد أسقفاً لبغداد وبابل (وهو مقعد أنشئ قبل قرن على أقرب حد)، في حين عيّن في هذه المناسبة الأخيرة قنصلاً عاماً لفرنسا من قبل لويس الرابع

عشر، وحتى وقت قريب قلما نجد في هذا المنزل غير الفرنسيين، أما اليوم وبسبب صعوبات التجنيد التي فرضتها قوانيننا فلا يوجد أحد منهم، في حين يجري تكلم اللغة الفرنسية هنا بشكل سهل ويسير ولكن لا نجد أثراً للغة الأم فيما عدا لدى بعثتين دينيتين بلجيكيتين.

لقد بدأت حكومتنا تعلّق عى هذا الامر في وقت متأخر جداً وذلك من جراء تراجع نفوذنا. المطلوب معالجة الأمر دون الانشغال في هموم التفكير والقلق.

قمنا بعد ظهر هذا اليوم بنزهة بلا هدف عبر السوق وشوارعه المغطاة، وقد وجدنا أن بعضها معتم تحت دياجير سقف قديم مغربل بالثقوب ومستند على هيكل من خشب مربع متآكل القشور بشكلٍ واضح، في حين أن بعضها الآخر أكثر نوراً أحدها ذو قبة مقوسة مفتوحة من عدة زوايا لكي تسمح بدخول أشعة الشمس وهو يعج بعددٍ لا يحصى من ذرات الغبار الراقصة التي تجبر المرء على أن يشيح بوجهه لكي لا يستنشق هذا الكم الهائل من الميكروبات دون التفكير بأنه يوجد ما يماثلها في الظل خارج السوق.

نرى أحياناً سيل عارم من رغوة بيضاء، جمع من القطن المزروع في الأراضي المجاورة، هذا القطن الذي يجب أن يزهر في الأراضي الصحراوية الشاسعة لكي يدر على هذا البلد من الغنى بقدر مماثل لما كان يعطيه القمح فيما مضى.

في مكان آخر نستمع إلى ضربات سريعة مثل رمي رشاش تعلن عن وصولنا إلى سوق صناعة القدور المعدنية (سوق الصفافير)، فعلى الأرض أو على جدران الورش المظلمة نشاهد إزهرار ذهب وردي، جرار، صواني، أباريق قهوة، معدن باهت يتجلى تحت طرقٍ مشدود، يجري هذا العمل اليومي بشكل مستمر دون توانٍ، إنه وابل من ضربات جافة مكتومة، ضوضاء مصمّة للآذان تغطي المكان من وقت لآخر مثل موجةٍ هادرة ولحن بطيء، صوت ساخن عميق أنعم من ناقوس الكاتدرائية، إنه صوت القدور الكبيرة من النحاس الأحمر التي تضرب في الظل.

أي سقوط قاسي لهذه المدينة ولعدة قرون نلاحظه لدى الخروج من هـذا الـسوق المعتم، حيث مخلفات عصر ألف ليلـة وليلـة تحفـظ الإيقـاع المتراخـي للحيـاة الـسالفة للعصور الماضية إذ يجد المرء نفسه ثانية تحـت ضـوء النهـار المنتـشر والحـي في الـشارع الكبير الذي يعج بعرباته وجمهوره الخليط. وفي مكان أبعد من ذلك نشاهد شريطاً مـن أبنية وضعت على جدرانها لافتات صـارخة الألـوان لم تقطعهـا سـوى بـسمة مـسجد صغير بقبته الضخمة المزخرفة بأكملها باللون الأزرق الـلازوردي، وبزخـارف زهريـة باللون الأصفر الذهبي مع حاشية سفلى بلونٍ تركـوازي، وهـي تتفـتح وتنـشد بهـدوء لدى الاغبرار غير المحسوس للسماء الزرقاء الشاحبة، والرواق الأسطواني الذي يـسند القبة المنيرة هو كذلك مكسو بالزخارف، نقوش كبيرة بيضاء فوق الحاشية اللازورديـة، تقويسات مكشكشة تؤطر باقات من الورود الوردية والقرنفل.

وفيما يتعلق بداخل ضريح ذلك المسجد فإنه مـن المستحيل أن أسـتطيع معرفـة شيء عنه ذلك أن الدخول إليه ممنوع بشكل مشدد على غير المسلمين.

تمتلك بغداد عدة مساجد رائعة مثل هذا الذي تحدثنا عنـه، ولوقـتٍ قريـب منـذ قرن أو قرنين دمرت الآثار الأكثر قدماً خلال الحروب السالفة، ونحن هنا بعيدون عـن المساجد الـضخمة لاسـتانبول المعاصـرة لـزمن لـويس الحـادي عـشر (Louis XI)، وفرنسوا الأول (Francois Ier) وجدتهم المجيدة سانت سوفي(Sophie–Saint) قبـل أربعمائة عـام تقريبـاً، لكـن هـؤلاء المتـأخرون وورثـتهم الأوفيـاء للحركـة التقليديـة جديرون باسترجاع السحر الفتان للشرق القديم.

هذا ويعّد المسجد الواقع في منطقة الكاظمية أكثـر مـساجد بغـداد شـهرة بقبتيـه الدائرتين إذ نشاهدها بوضـوح لـدى الوصـول صـباحاً بواسـطة القطـار، وقـد ذهبنـا لمشاهدته عن قرب ومشينا عدة كيلومترات في شارع ترابي تنتصب على طرفيه أشـجار نخيل نحيفة تبرز من بين الرمال بـشكل متنـاوب، كـذلك حوانيـت مبقعـة مـع انتـشار لافتات للإعلانات باهتة اللون أو ممزقة وأشياء قديمة لمواد ملحقة وبقايا أنقـاض مـواد

خاصة بالسيارات، وتقع القرية تحت الانعكاس الذهبي للقبتين المتزاوجتين محاطة بمنارات أربع رؤوسها مكسية بالذهب. وفي مكان آخر وعلى إحدى جهات المسجد هناك باب كبير مقوس على طرفيه زخارف من طبقات ورد وفواكه تعترض سلسلتين ينفذ من خلاله إلى داخل المسجد. اقتربت من هذا الباب الذي يمنع عليّ اجتيازه، في حين لمحت مجموعة من المواد الحديدية وفناء قصر من الأحلام ذو حيطان من المينا والطلاء الخزفي تلمع على امتداده دعامة من زجاج لم يكن لديّ وقت كاف للإسهاب في التمعن فيه أكثر من ذلك كون هذا المكان الذي كان فارغاً لدى وصولي إليه قبل دقيقتين أو ثلاث، في حين هو الآن يعج بجمع غفير من الناس حيث بدأ الهمس المعادي لي يزداد لحظة بعد أخرى كما لو أن هذا المكان المقدس قد تسببت في تدنيسه، حينها وجدت أن من غير المناسب أن تساء معاملتي ولكي أعبّر عن حسن نواياي شرعت بوضوح في حركة تراجع وببطء شديد قدر استطاعتي، ولأشبع نهمي كذلك بالنظر إلى مشهد الباب وإطاره البديع المزخرف بأغصان موردة حيث يتأرجح اللون الأصفر الليموني في وسط ألوان زرقاء لازوردية وتركوازية من ورود غاية في الجمال بلون الفراولة المهروسة.

في فصل الصيف لا تبقى السرائر في الغرف، إذ تثبت على سطوح المنازل بشكل دائم وعلى بعد عشرة أو خمسة عشر متراً بين سرير وآخر، فضلاً عن وجود صالة طعام للعشاء في إحدى زوايا السطح حيث أن بغداد جميعها تنام هكذا على سطوح المنازل خلال جزء كبير من السنة.

تمر هذه الليالي تحت النجوم الجميلة التي تعدّ بالنسبة للغربي من أجمل وأحلى الذكريات في البلدان الحارة للمشرق.

كان النوم ليلة أمس تحت ضوء القمر وقد امتد خيال المنارة المجاورة إلينا، في حين كان نباح كلاب المدينة فضلاً عن التطبيل الصارخ والأجش للأعراس العربية

يشكّل ضوضاء مستمرة كما لو أنها تهدهد المرء حتى يأتيه النعاس تحت ضوء القمر الفاتر الذي يطغى على ضوء النجوم المتفرقة.

ليلة كان خلالها الفكر شارد في أحلام بعيدة، من ثم ذهول اليقظة بمواجهة السماء ذات الزرقة الخفيفة، إنها عودة إلى الواقع مع تصاعد الصخب العام المرتفع والبعيد فضلاً عن الزقزقة القادمة من مطيرة الطيور، أو تمرد بلا نهاية لأحد صفوف الأطفال المدرسية، آلاف الصرخات القريبة جداً للحياة المتجددة التي تبدو مرفوضة على حدود المدينة ومتهدمة في دائرة واسعة من الضوضاء تلفها هالة رنانة كبيرة. فلأذهب واقفاً في رحلة حول غرفتي أو بالأحرى سريري الذي نمت عليه.

قريباً جداً وسنكون على برج بابل، في حين هنا نجد أن الجدران لا تريد أن ترتفع حتى السقف الأزرق (السماء)، إلا أنها أيضاً قلما ترتفع إلى مستوى السطوح الأخرى حتى منتصف قامة الرجل، أما بالاتجاه المعاكس فهي تتجاوزها بقدمين أو ثلاث مستندة عليها مداخن من الآجر وأنابيب تهوية السراديب، أنابيب مكوعة إلى القمة ومنتهية بواسطة فتحة عمودية مقطوعة بشكلٍ جميل بسلك مقوس وهي مزخرفة مثل بعض الإطارات ذات التغليف الفارسي، حيث يوجد باب صغير جداً عليه ستائر مرفوعة ومعلقة بأربطة ستائر.

قريباً منا وإلى جوار بنايتنا تقريباً من جهة القبة الكبيرة للكنيسة الكاثوليكية التي تحدبت درقتها، ذات اللون الأسمر الناصع نشاهد البرج العالي لمنارة تحجب ضوء القمر عنا بظلها الممتد فوق نعاسنا، تلك المنارة المتضررة من جراء محاولة الأعداء هدمها إبان حروب القرون الماضية، فيما يبدو أنهم أقلعوا عن ذلك بسبب قوة ومتانة بنائها إذ لم تزل المنارة قائمة، إلا أن جوانبها متصدعة وموشمة بندوب عميقة في داخلها شبيهة بنخروبات النحل الكبيرة تسند الخرجات شرفاتها، وهنالك مئات الطيور تعشعش فيها وهي مستمرة بالهديل.

لقد سكنت هذه الطيور هنا بحسب تأكيد إحدى الروايات عندما أعطي زوج منها في سابق الزمان إلى أحد الخلفاء كهدية، إذ يروى أن أمير المؤمنين كان قد دخل مسجداً من أجل التعبد، وقد لاحظ حراسه يقومون بطرد أحد الفقراء بعنف، الذي هو أيضاً كان قد جاء ليصلي في المسجد، فأخذه الخليفة تحت حمايته وأعطاه كيساً من النقود، في حين ارتعد الرجل التعيس وهو يكيل الثناء للخليفة مقدماً إلى سيده الشيء الوحيد الذي كان يملكه، وهما طيرين في قفص، قد قبل الخليفة الهدية وأعطى حينها الحرية للطيرين الحبيسين اللذان لجئا إلى أعلى المنارة وتكاثرا فيها.

أحياناً ولسبب غير معروف تطير هذه الطيور الإسلامية فجأة من مناراتها لتعبر فوق سطوحنا مع أصوات أجنحتها التي تصم الآذان، لترتمي على معطف رمادي أزرق فوق قبة الكنيسة الكاثوليكية ثم تعود فجأة إلى حضن الإسلام في فتحات مناراتها بعد لحظات، ويبدو من ذلك أنها ترغب بالتعرض إلى أشعة الشمس المشرقة. ترتفع الشمس في الواقع أبعد من الرمزين الدينيين.

فوق المربعات المتناسقة لسطوح المنازل التي تقطعها متاهات الشوارع،يلمع بريقها وشعاعها على عمائم المنارات المزخرفة بالمينا لمزهرة، مثل النيلوفرات (عرائس النيل) متعددة الألوان هي قباب الجوامع.

الأراضي السهلية حيث تقع بابل [1]

غادرت منذ الصباح الباكر باتجاه آثار بابل التي هي عبارة عن بقايا أطلال وقد توخيت الحذر عندما أصبحت قريبا منها، مع أنها أقل تهدماً من تلك التي في نينوى[2]، وخاصةً انه يمكن الوصول إليها بشكل أكثر يسراً، فبدلاً من وقتٍ قصير في السيارة، لزم الأمر من أجل الوصول إليها ما يقارب خمسة ساعات في السكك الحديدية.

تركت بغداد قبل الساعة الثامنة صباحاً ولم أعد إليها إلا بعد الساعة السابعة مساءً في الليل المعتم، في حين كان من الممكن أن تكون السيارة بالتأكيد أكثر سرعة مع أنها أقل أماناً، فقد وجدت عجلتها أول أمس مخلوعة.

دليل سكك الحديد العراقية كتاب صغير لكنه دقيق يرشد المسافرين بأن في محطة قطار الحلة التي تبعد عن آثار بابل حوالي ستة كيلومترات ونصف، توجد سيارات أجرة للذهاب إلى الآثار، وقد حُدد ثمن الأجرة بعشرة روبيات ذهاباً وإياباً أي ما يعادل عشرون فرنك فرنسياً حسب سعر الصرف الحالي.

يحتوي القطار عربة طعام مزودة بكميات كبيرة من المعلبات من أفضل العلامات التجارية الإنكليزية من ماركات معتبرة لأنه ليس بإمكاننا الحديث عن الفطور في الحلة إذ يستوجب الأمر أن نمضي ساعتين بالكاد من اجل ذلك، وحيث من المرجح أن لا يجد المرء شيئاً يأكله (ربما عدا جراد مقلي) !!

مشهد تافه وممل، مناطق زراعية حول قنوات الري، أراضي صحراوية كبيرة واسعة، وسراب بعيد. في تلك الأثناء مرّ رجل عجوز بدين فوق حمار، أقدام الرجل تلامس الأرض تقريباً، وقور المظهر، مثل حبرٍ أعظم، الحمار يبدو مسروراً، يتكرر هذا المشهد عدة مرات على امتداد الطريق.

---

[1] الفصل الثامن من الكتاب.

[2] نينوى : العاصمة القديمة للآشوريين، مركزها اليوم مدينة الموصل الحالية التي تبعد عن بغداد حوالي 400كم إلى الشمال.(م)

منطقة الإسكندرية[1]، عبارة عن مجاميع من القباب الواطئة المتراصة وهي شبيهة بلون الأرض تشرف عليها بنايتين آيلتين للسقوط ذات شرفات مقوسة تلقي ظلالاً واسعة على معظم تلك القباب.

الهندية إحدى نواحي مدينة كربلاء هذه الأخيرة مدينة مقدسة لدى المسلمين (الشيعة) الشهيرة بعتباتها المقدسة التي من المستحيل بالنسبة لي الوصول إليها، ولم يكن لدي متسع من الوقت أيضاً الذي لا غنى عنه في رحلتي هذه فضلاً عن ذلك فإن الأمر لا يستدعي التأسف أو الندم، ذلك أن الناس في كربلاء معروفون بتعصبهم الديني[2]، وفي حالة ذهابي إلى هناك فإنه يتوجب علي على الأرجح أن أمر بشكل أكثر سرعة أمام مسجدها الكبير مما هو عليه الحال لدى مروري أمام مسجد الكاظمية كما حصل لي بالأمس. على امتداد سياج محطة قطار الهندية تجلس نساء عجائز يقمن ببيع الفواكه والبيض واللبن وهو نوع من الألبان الرائبة، حينها فكرت لو تناولت شيئاً من هذا اللبن الذي يباع في أواني فخارية مطلية باللون الأزرق إذ سيكون ذلك أفضل لي بكثير من تناول معلبات مكتوب عليها (صنع في بريطانيا)، تفاوضنا مع هذه العجوز وقد توجت المفاوضات بالنجاح (نجاح في ماذا ؟)، اصطحبت آنيتي وأكلت بشهية مفتوحة من هذا اللبن اللذيذ الطازج قليل الحموضة.

وصلنا ظهراً بتوقيت دقيق للغاية إلى المحطة الرئيسة، من أية جهة أنزل ؟ آه، لم نبلغ المحطة بعد، فالقطار لم يصلها، إذ توقف في منتصف الطريق وانتظر باحترام عبور قافلة مكونة من مئات الجمال حتى انتهت بالتوالي أمامه، إنه نظام عبور على مستوى عالٍ يثير بشكلٍ مؤكد حسد سائقي السيارات في الغرب!

لقد وصلنا الحلة هذه المرة بخير لكن لدى العودة يلزم الأمر ساعتين على الأقل للوصول إلى بغداد بالرغم من تأكيد الدليل بوجود سيارات أجرة في المحطة إلا أننا لم

---

[1] الإسكندرية : مدينة صغيرة تقع بين بغداد والحلة .(م)

[2] الناس في كربلاء آنذاك وحتى اليوم عرفوا بتمسكهم بمبادئ دينية إسلامية ومرجعية شيعية محافظة، يعتقد المؤلف بحكم البيئة الغربية التي عاش فيها بأن هذا الالتزام الديني هو من قبيل التعصب من وجهة نظره.(م)

نجد منها سوى واحدة، إذ يبدو أنها توجد بكثرة في مدينة الحلة ذاتها على العكس من موقع الآثار وهي تبعد ثمان أو عشر دقائق من هنا بالسيارة، شرعنا بالذهاب في حين مرت عربة تجرها خيول ضرب الحوذي بسوطه عليها فأثارت سحابة من الغبار على طريق مرورنا،في وقتٍ ظهر أمامنا سياج كثيف من أشجار النخيل، عبرنا نهر دجلة الذي أشاهده للمرة الثانية إذ كانت المرة الأولى في منطقة دير الزور وقد لاحظت أن النهر في هذه المنطقة ضيق جداً فقد شحت مياهه من جراء انتشار كثير من القنوات التي تسحب مياهه قبل الوصول لكي تغمر هذه القرية الكبيرة وهذه الواحة المظللة.

انطلقت بنا سيارة بسيطة دون عداد وها نحن قد عدنا أدراجنا بعد أقل من ربع ساعة وقفت أسفل تلة جرداء تماماً : هاهي المدينة الأثرية. صعود صامت مشوب بقلق وحذر في لحظة الإطلاع على ما بقي من بابل وبعد التأكد وجدت أنها مثل نهر الفرات اسمها لا يتطابق مع أسطورتها، ماذا بقي منها ؟ هضبة واسعة مليئة بالحفر والتشققات راسمةً على السهل موقع هذه المدينة التي يحيط بها سياج مربع يبلغ محيطه ما يقارب المائة كيلومتر تقريباً، في حين أجد مساحتها مساوية إلى تلك التي تشغلها مقاطعة السين (*La Seine*) الفرنسية.

إن هذا التحصين الضخم يقطعه بشكل مائل نهر الفرات الذي لا يحمي المدينة ومساجدها وقصورها وحدائقها المعلقة ذائعة الصيت فحسب، ولكن أيضاً الحقول الزراعية الواسعة جداً التي تسمح لسكانها بمقاومة أي حصار دون خشية المجاعة.

إن بقايا سمو ورفعة بابل قد دفنت منذ عدة قرون تحت هذا الكفن من الرمال والطين و تفتت جميعها بعد أن كانت تزهو على مد البصر وسط الضياء البهي، في حين كان يعتقد المرء أن ركام دمارنا الشديد يأتي من الحروب فحسب.

هذا الكفن الصلب المتحدب الذي نتقدم عليه كقفزات الماعز قد قضم إذ أن هذا الثقب الواسع ترك لنا رؤية جزء من الجثة، أسوار متهدمة أو أبنية آيلة للسقوط، بائسة الشكل راسمة أماكن ذات أشكال مربعة تهيمن عليها سطوح عمودية، فضلاً

عن الزوايا البارزة الصلبة لإطارات مزخرفة من الآجر، وهي الإطارات الشهيرة المزركشة التي تحيط بباب عشتار، أما فينوس (آلهة الحب والجمال) البابلية فتتدرج على جوانبها من سفح القمة نقوش على شكل ثور يتناوب مع تنين، وأبعد من ذلك وبشكلٍ منعزل هناك تمثال معروف أيضاً هو عبارة عن أسد يصارع رجل، تمثال وحشي لكنه لا يخلو من القوة والجبروت، كل هذا تم إبرازه وبعثه قبل الحرب من قبل الآثاريين الألمان.

من أجل الوصول إلى عمق التنقيب حيث يوجد تراب العاصمة الأثرية القديمة ذاته، يلزم الأمر النزول خمسة عشر إلى عشرين متراً عبر سلالم مثلمة وانحدارات مكوّرة وزلقة مع تكديس مترنح من الآجر المنفصل عن بعضه البعض بأشكال مختلفة، مسطحة ومربعة كبيرة الحجم، يميل اللون الذي بنيت به هذه الآثار إلى الرمادي المورّد، وقد تم رصف قطع الآجر هذه بمادة الزفت بدلاً من الرمل والكلس ! حيث نشاهد المادة المنصهرة ذات المظهر الحزين تغطي حافات الجدران، مع أن معظمها (يوجد منها ملايين) تحمل نقوشاً مسمارية مرسوم عليها شعار (نبوخذ نصر)[1] نفسه.

في القعر أشواك مصفرة متيبسة لأشجار نخيل فقيرة يعملون منها حزم عديدة. نزول بانحناء على سلالم نصفها متهدم تصل بناء في الظلام إلى بركة ماء آسن ونتن وهناك مجموعة أحجار لا يعلم المرء أية حشرات نتنة وسامة تعيش فيه، فلنصعد ثانية بسرعة حيث نور الشمس الساطعة لكي نعاود مرة أخرى النزول إلى جوف الأرض.

والآن أنا في الأسفل وسط منازل مهدمة وطرق مقفرة حيث تقع بابل الأثرية، وقد وصلت على الأقدام عبر الطريق المهيب حيث الزينة الرائعة لباب عشتار، وفينوس (آلهة الحب والجمال) لهذه الملة التي هي في علم الأساطير لا تمتلك لطافة أو ابتسامة حب أو بالأحرى ذات شهوة حيوانية ووحشية، أي استحضار هذا بين بقايا

---

[1] نبوخذ نصر : ملك بابلي شهير (605-562 ق.م).

الحطام الحزينة في عمق هذه المقبرة التي أنا فيها الآن الكائن البشري الحي الوحيد الذي يتوجب عليه البحث عن منفذ للخروج !....

لقد نجحت بفضل بعض الجهود بالفرار من هذه المقبرة إذ اصطحبتني سيارة الأجرة خلال اثني عشرة دقيقة (حصل السائق على العشرة روبيات بسهولة تامة) إلى محطة قطار الحلة حيث كان يوجد في تلك الأثناء قطار لم أكن أمتلك الوقت الكافي للأسف لكي أستقله، قطار فاخر مع عربات منام وعربة مطعم حقيقية ينزل هذا القطار باتجاه الخليج صوب البصرة (فينيسيا الاستوائية) حيث قنوات الري تشق غابات النخيل.

من الصعب علي حتى الذهاب ضمن هذا الاتجاه إلى آثار أور[2] التي تبعد مئتان وخمسون كيلومترا فقط من هنا حيث يقع وطن "إبراهيم"، في وقت يقوم فيه الآثاريون الألمان بتنقيبات مثمرة هناك. عليّ الاكتفاء بالذهاب إلى لندن لرؤية الاكتشافات الآثارية لدى عرضها في المتحف البريطاني.

أخذت القطار الصاعد إلى بغداد وأنا أشعر بالحزن حيث وصلت في الليل المعتم راجعاً من هذه الرحلة السريعة جداً والأكثر متعةً من مثيلتها في نينوى.

لم يفتني أن أجلب معي قطعة من الآجر بختم (نبوخذ نصر) كانت مهملة، وقد توصل الناس هنا إلى تأسيس تجارة تعتمد على قطع الآجر هذه من أجل بيعها للسائحين، مقتنو التحف الآثارية سوف لن ينسونها بكل تأكيد، شيء مدهش جداً إنها تحفة أصلية.

---

[2] أور : من أقدم مدن العالم القديم، تقع قريبا من مدينة الناصرية حالياً حوالي 300 كم إلى الجنوب من مدينة بغداد، وهي المكان الذي ولد فيه نبي الله إبراهيم (ع) أول نبي للبشرية بحسب الروايات.(م)

إلى قصر الملك الكبير[1]

قطعنا ساعة ونصف في السيارة ؟ دون أي ملل، لقد حققنا حلماً حقيقياً، حلم قديم جداً وذلك بالذهاب إلى طيسفون[2]، إلى آثار القصر الشهير المشيد على ضفاف دجلة في القرن السادس من تاريخنا[3] من قبل ملك الفرس الكبير(كسرى أنوشروان).

لقد حصل قتال هنا زهاء عام 1915 أو 1916[4] أدى إلى الإضرار بهذا الأثر التاريخي الهام، ماذا تركت الحضارة الحديثة وقذائفها الحربية بشأن تخليد هذا الأثر القديم جداً، الأدنى مرتبة بالنسبة لتلك التي في عصرنا بحيث أن المرء بدأ يدرك بأن الإنسانية أصبحت مذنبة بتقدمها.

طريق جميل واسع من المؤمل أن يكون بعد عدة سنوات مظللاً بالأشجار، فهناك شجيرات نحيفة على جانبيه زرعت صفصاف متدلي الأغصان تطلّب الأمر جلبه من بلاد فارس قبل سنة أو سنتين من الآن وذلك من أجل زراعته هنا في بلاده الأصلية إذ كانت تلك الأشجار قد اختفت منذ زمن طويل، كما وضح لي مرشدي السياحي المؤدب، أحد الآباء الكرمليين العرب.

عبرنا جسر ديالى الذي يمر من تحته مسيل ماء ضيق وعميق منحدراً إلى أقصى اليمين حيث الرقعة الزرقاء التي كأنها مرسومة بقلم الباستيل تنزلق عليها بهدوء سفينة بيضاء بعد الطريق مباشرة في حين لاحظنا آلاف من الترغلات تملأ الأراضي السهلية من حولنا تماماً وهي تغادر أماكنها لتنتقل أمام سيرنا بصعوبة ومع قليل من الخشية.

---

[1] الفصل التاسع من الكتاب.

[2] سلمان باك حالياً.(م)

[3] يقصد به التأريخ الميلادي.(م)

[4] يعني بها الحرب العالمية الأولى حيث كان العراق أحد ساحات القتال بعد الاحتلال البريطاني للعراق عام 1914م.(م)

يتساءل المرء : أية مذبحة قام بها الضباط الإنكليز هنا، بحيث أن هالة كبيرة من الثقة البريئة لم تنزع سلاح الصياد المسعور. هذا المشهد نلاحظه حتى قرب بلدة نمرود[1].

على امتداد الطريق نشاهد حقول واسعة من مزروعات عالية مغطاة بزهور بيضاء، إنها أشجار القطن حيث الحبوب شبيه بجينات ورود كبيرة، في حين تفتحت وازدهرت ثمار القطن في البعض منها.

هذا القطن هو الحظ المولود لهذه البلدة، إذ تمتد زراعته بسرعة بفضل التقدم في مشاريع الري التي يقوم بها الإنكليز أصحاب التجربة والخبرة المكتسبة في مصر في وقتٍ وضعت فيه دراسة لبلاد مابين النهرين قبل قيام الحرب تماماً [2].

لاشك أن القطن والبترول هما الكلمتان السحريتان اللتان تذكران في كل العراق ولاسيما لدى الطبقات المتوسطة خصوصاً، إنها سراب يمكن مقارنته بالذهب في مناطق أخرى.

لقد وصلنا قرية عربية صغيرة فقيرة إلا أنها مشهورة ومقدسة في العالم الإسلامي وهي (سلمان باك) واسمها يعني "سليمان النقي" رفيق النبي[3]، الذي يرقد في هذا المكان، وتنتشر على بعد خطوات من هنا مساكن صغيرة عبارة عن كتل من الآجر (اللبن) أكثر علواً من بيوت باريس. بعد مسير لعدة ثوان منعطف وذهول في

---

[1] النمرود: بلدة أثرية هامة تقع بالقرب من مدينة الموصل.(م)

[2] في مصر، كانت الوسيلة مخطط لها، فقد أعطي النموذج من قبل مهندس فرنسي (موجيه باي) Mougel Bey وذلك زهاء عام 1850م، أي قبل ثلاثون عاماً من الاحتلال البريطاني، عندما بنى سد الدلتا وسد أسوان وسد النيل الأول، والتي كانت قد درست من قبل ابنه الذي بعد أن وضع أسس مشروع متكامل تملكته الحسرة والأسى من جراء رؤيته إكمال بناء المشروع من قبل آخرين وفي بلاد مابين النهرين أيضاً فقد اتبع المهندسون الإنكليز آثار مواطنينا، ومنهم (ابن موجيه) الذي مارس نشاطه في هذا البلد بعد أن ترك مصر والسيدين (ستيرد و مزدوفا) اللذين نفذا أعمالاً كبيرة على الفرات وذلك بناءً على طلب الحكومة التركية.

[3] النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

هذه الآثار معدومة الهيئة ثم واجهنا قنطرة جسر ضخمة بيضوية لطيفة ممشوقة ليست كهذه الجدران الشاقولية بل المنحنى هنا مرن وطبيعي.

هاهي بقايا ضخمة لجناح بناية مقببة (عرضها سبع وعشرون متراً وارتفاعها ثلاثون وطولها خمسون)، تبرز من وسطها واجهة ذات ستة طوابق من أبنية وشرف مقدسة تشكّل قصر (طيسفون) الذي فيه صالة الملك كسرى ملك السلالة الساسانية الحاكمة.

كانت الأبنية حينذاك – كما يقال – مزينة بالذهب، في حين أن جناح البناية مغلق تماماً من نهايته بحائط، ومفتوح من الطرف الآخر بشكلٍ واسع ليطل على السهل مع أنها مخفية بشكلٍ مألوف بستارة كبيرة من قماش الجوخ ترفع لدى الاجتماعات والجلسات الملكية وهي مزينة في الليل بقناديل معلقة على عقد القبة.

إن هذا الطراز المعماري النفيس ذو الفتحة الهائلة التي تقطع الواجهة بأكملها قد اقتبسه الإسلام (ثم قام بتطويره) إذ نجد ذات الطراز - رغم الاختلاف الجانبي - في رواقات مهيبة بأقواس قوطية منتصبة في مداخل مساجد بلاد فارس والهند، ومن بينها قريب من هنا يقع مسجد الكاظمية الذي يعّد نموذجاً من هذا الطراز على انه أقل حجماً في البناء.

إن هذه التحفة الرائعة قد لحقت بها كثير من الأضرار على مر الزمن، لاسيما من قبل الرجال في الثورات الأولى التي قادها المسلمون قبل آلاف السنين بل حتى خلال الحروب الأخيرة التي وقعت في هذه المنطقة ومع أن نصف الواجهة التي تقع إلى جهة اليسار هي مشوهة بشكل خطير إلا أنها مع ذلك لم تزل منتصبة تقاوم الزمن، في حين أن تلك التي إلى جهة اليمين قد اختفت تماماً، وفيما يخص البناية الكبيرة (الطاق) فهو آيل للسقوط هو الآخر، يتهدم قطعة بعد أخرى، أما القبة الكبيرة فنلاحظ أن ثلاثة أرباعها متهدمة تقريباً ولم يتبق اليوم سوى قنطرة جسر بديعة البناء.

إن هذا الأثر الجسور قد غطى بارتفاعه حيزاً كبيراً في السماء الزرقاء. إن أطفالنا أقل حظاً منا إذ أنهم سوف لا يسعفهم الحظ – بالتأكيد – في رؤية هذا المنحنى المتناسق والمغامر الممتد إلى عنان السماء، وفي ظل هذه التصدعات والخدوش الماثلة على الجدران والقبة التي تعشعش فيها الطيور كما شاهدناه في ثقوب منارة بغداد ، فقد روى لي مرافقي البحاثة المتميز الأب الكرملي البدايات الأولى لتعاسة وبؤس هذا القصر، دون أن يذكر لي التصدع الأول الكبير الذي أصابه والذي تزامن مع مولد النبي العربي.

هارون الرشيد الخليفة المعاصر وصديق شارلمان[1]، أراد محو هذا النصب الآثاري لكبير الفرس، وفي ذات التوجه ألغى ذكرى الاحتفال بالدين المجوسي، لكنه كان قد تردد في هدم القصر فاستشار في البدء أحد وزرائه المنسوب إلى الأسرة البرمكية[(2)] والذي لسبب أو لآخر وضع في السجن في حين استطاع البرمكي أن يرّد : بأنه يجب أن لا يُستشار رجل حكم عليه بأن يوضع في السجن !! مع ذلك فقد حذر من الشروع بالهدم.

وبالرغم من أن هارون الرشيد قد استلم المشورة التي طلبها من وزيره إلا انه لم يأخذ بها وباشر بالهدم لكن دون أن ينجح في ذلك فقد كان القصر ذو بناء متين جداً بحيث أن العاملين أنهكوا في هدمه ودون جدوى في حين تكسرت الأدوات المستخدمة من جراء شدة ومتانة البناء.

عاد الرشيد للمرة الثانية ليستشار سجينه الذي نصحه هذه المرة بالاستمرار في عمله فغضب الخليفة وأخذ يردد : ((أليس لديّ ألف سبب لكي أضع هذا الشخص اللعين في السجن، الذي يتجرأ على إعطائي آراءاً متناقضة تماماً في كل مرة؟)).

---

[1] شارلمان : الابن الثاني لبيبين الثالث، الذي تولى العرش بعد وفاة أخيه الأكبر كارلمان الثاني عام 771م، وحكم البلاد من (771-841م)،أقام إمبراطورية واسعة عرفت بإسمه. (م).

[2] يقصد به وزير الرشيد يحيى البرمكي.(م)

في حين أجاب البرمكي : ((لقد فعل الكفار حسناً حينما لم يهدموا آثارهم في حين أثبتنا نحن تفوقنا عندما قررت أنت تهديمها فليكن ذلك، ولكن استمر في عملك هذا وبعكسه سيقال أن الإسلام ليس قادراً حتى على إكمال ما قد بدأه...)).

لم تكن هذه المشورة الثانية أفضل من سابقتها في الإتباع فقد استمر الخليفة بالهدم، أما بالنسبة للمشاور الحكيم فقد قام سيده بعد فترة من الزمن بقتله ونفى أو ذبح أبويه وأصدقائه، وقد كانت تلك نكبة فظيعة للبرامكة، إذ بقي أثرها ماثلاً بشكلٍ مستمر مع ما يشوبه من غموض وإبهام.

يروي بعض المؤرخون العرب في روايات مختلفة محاولة تهديم (قصر طيسفون) إذ يرجعون ذلك إلى الخلفاء الأسلاف لهارون الرشيد، لكن هذه الرواية قد تكون الأقل إحتمالاً إلا أنها دون شك الأكثر ندرةً.

* * *

هكذا كانت نهاية إقامتي القصيرة جداً في بغداد إذ يتوجب عليّ غداً صباحاً أن أسلك طريق العودة إلا أنني لا أرغب في ترك هذه المدينة دون أن أعود الأخوات في البعثة الفرنسية إذ لم أفلح في الوصول إليهن إلا زهاء الساعة السادسة مساءً في وقت بدأ فيه النهار بالانحسار، حينها لم يستقبلني رئيس الدير فقط وإنما جميع الطائفة اجتمعت في الحديقة حول (المسافر) الذي كان قد جلب لها أخباراً عن البلد الأم، فضلاً عن قبعات الراهبات هذه ذات اللون الأبيض وهي مهداة من طائفة ممثلية مدينة " تور " (Tours).

لقد ارتضت الأخوات النفي، وغالباً ما يكون نهائياً في بلاد مابين النهرين البعيدة عنا، في هذا البلد المسلم حيث يحملن ليس عقيدتهن فحسب ولكن أيضاً لغتنا وحب بلدنا فهن يعلّمن تلاميذهن الصغار (مسيحيين ومسلمين) تكلم الفرنسية والتعرف على فرنسا ويعملن كذلك على تخفيف البؤس الذي يعانون منه.

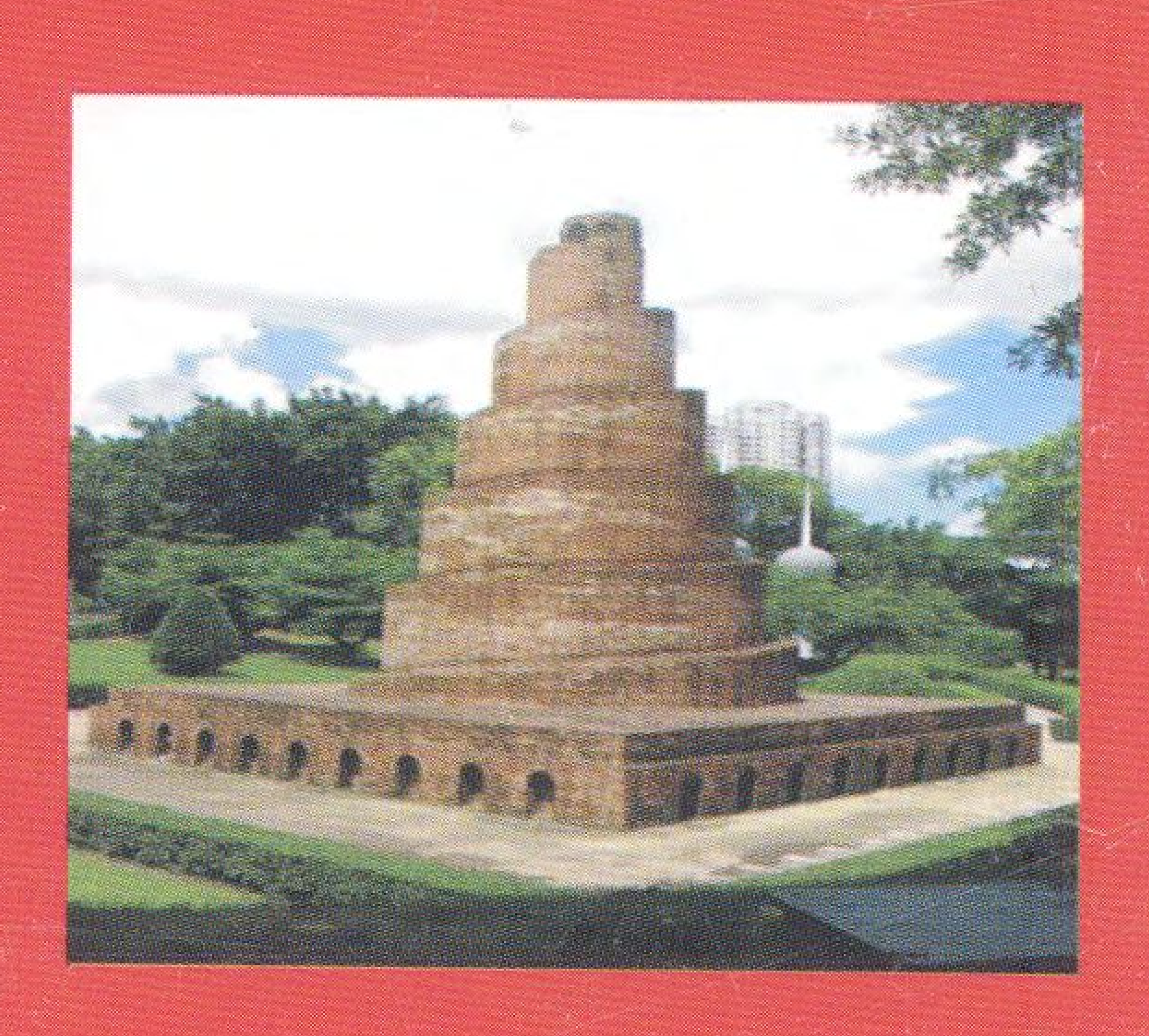
لقد جاءت الحرب ولم تمحو الحزن فقد انصبت اهتماماتهم على الضحايا، لاسيما الأسرى الإنكليز والجرحى. وفي ذات الوقت عبّرت الحكومة البريطانية الحاذقة بعد النصر عن عرفانها بالجميل تجاه من ساعدوها وعملوا معها.

ولكن ماذا عساها تفعل غداً ؟ لقد تغيّرت الأحوال رأساً على عقب إذ لم يتبق أمام الناس سوى البعثات الفرنسية، التي هي في الوقت الحاضر ضعيفة، وقد احتفظت تحت رعاية المتعهد الإنكليزي برفاهيتها التي بلغتها في ظل الهيمنة العثمانية المتداعية. وسيكون باستطاعة البعثات الكاثوليكية، من جهة أخرى، أن تكون أقل توجهاً في إضاعة الوقت حيث معارضة النظام الجديد قد خفّت لدى المسلمين الذين يشكلون الأغلبية الساحقة في هذه البلاد.

هبط الليل وسأترك إلى الأبد بكل تأكيد مواطناتي المجهولات اللـواتي أحسـست في وسطهن بأنني بين عائلتي. نحن نجهل كثيراً المنفعة التي تقدمها هذه المنازل ومنها هـذا الذي نحن فيه الآن إذ لا يمكن للمـرء اليـوم أن يحـصل علـى شـيء عظـيم حتـى وان حصل على مال وفير. ولكن هؤلاء النسوة المقدامات يحصلن علـى القليـل منـه لكـن تفانيهن وإخلاصهن لا حد له إذ تزداد وتيرته بشكلٍ مضاعف.

اتركوا إذن أيها الزائرون عطائكم المتواضع بالإحسان أو حتى بقليل من الأنانيـة من أجل الفرح العميق لكي تحلموا بالمعجزات التي ستوفر لكم هـذا القـسط، تـذوقوا أيضاً الإحساس بتمثيل فرنسا من أجل المنفيين المخلصين، فمهما كان المرء سخياً فإنـه سيخرج من هنا وقد أعطى أكثر قليلاً مما لو لم يستلم شيئاً.

بغداد





تصميم دار المناهج



دار المناهج للنشر والتوزيع
Dar Al-Manahej Publishers
عمان-شارع الملك الحسين- عمارة الشركة المتحدة للتأمين
هاتف ٤٦٥٠٦٢٤ فاكس ٤٦٥٠٦٦٤ ص.ب ٢١٥٣٠٨ عمان ١١١٢٢ الأردن
Info@daralmanahej.com
WWW.daralmanahej.com



شركة مطبعة أروى
Tel.: + 962 6 4892686